ذات شفق

(مدوَّنة عشق)

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني : وفاء الساطي
لوحة الغلاف : الفنان نبيل جبور
تصميم الغلاف : عبد الله كلثوم

أيمن الحسن

ذات شفق

(مدوَّنة عشق)

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة القصص (6)
2012

الإهداء

إلى قارئ

إن لم تتـنفس عبر الكتابة، لم تصرخ،
أو تغنِ فلا تكتب إذاً...

- أنايبس نِـن

.. سأموتُ سعيداً

لو قدرتْ كلماتي

أن تفرِحَ

بعضَ الناس..

- توفيق زيَّاد

أ ذات غيمة عشق

مطر1 قناع جميل
مطر2 أبعد من نجمة
مطر3 ظل القمر
مطر4 3 بيلسانات

ـ أيُها الأصدقاء

لا تخافوا الحياة..

قناع جميل

تنتابك

حالة تساؤل مقلق:

ماذا يعني أن تغيب محبوبتك عن أمسيَّة؟ تُراه الخوف أن تضيّعها؟ أم الخوف عليها؟ والوقت عصيب: ثمّة حالةُ طوارئ في البلاد

حواجز كثيرة

ومظاهرات....

مساء حزين، يجتاح سماءنا، يسرق لون الفرح من عيوننا: مكفهرَّة نهاراتنا، مثقلة بالوجع، وصرخاتِ ثكالى، دون بارقة أمل:

"كأنّي أدرأ قساوة أيامي بهذا الحبِّ

ليملأ أوقاتي انتظارات جميلة

ولقاء مشتهى".

أخبروك: "سوف تعود وحدَها بالبولمان".

ـ إذاً لا أحد، من عائلتها، يخفِّف عنها مشقَّة السفر!

تحدس متلهِّفاً: "**قلبي عليكِ**".

ثمَّ تتنهَّد في سرّك:

"**بل أيُّ قلب؟ لا أحسُّ خفقاً في صدري الآن**"....

ـ القلب في الجهة اليسرى، أليس كذلك؟

أهزّ رأسي بالإيجاب، ونحن، مثل عادتنا معاً

على طريق العودة من المركز الثقافي.

ـ لكنِّي أحبُّ السير إلى يمينك.

ـ سيري أينما شئت، لكن أرجوك: عودي بسلام يا ضحى.

الحبُّ يؤكِّده خوف الغياب: إن أردتَ اختبار حبِّك لشخصٍ فغب عنه، إذا شعرتَ بأنَّك تختنق، قلبك يهمي ذابلاً بلاً خفقان، ويشتعل رأسك بفحيح حارق

فأنت تحبُّهُ

وإلَّا توهُّم حب..

*

تعلن الأغنيَّة سؤالاً مهزوماً، وأنت في سيارةٍ أجرةٍ صفراءَ بائسة: "مع مين بدَّك ترجع وعتم الطريق؟..."
فتسترجع مناجاتكما بالأمس:

-يا امرأةً توصف بالسحر:

كيف تمزجين قهوتك برائحة الفجر؟

-أمسك لهفتي لئلا ينساح وجدي

حين أراكَ بعين القلب.

-يا الوردة لا يوصَف بغيرِ الشِعر شذاها:

عديني بالشغف انتظارَ مجيئك.

- يا النصفك موجٌ، والبحر دوار:

ليكن إفطارك قصَّة تتلى.

-عشاؤك قصيدة تشتهى:

نامي قليلاً، واحلميني غيمة عطر..

أتخيُّلها معي

تحت شجرة الأكي دنيا

تقرأ في كتاب

فيندفع، من بين شفتيَّ الواجمتين طوالَ الطريق، سؤال يترجَّى الجواب:

ـــ دعـيكِ مـن حزنـي، وأخـبريني: كـيف أسـتعيد إحساسي بالحياة، وأنتِ بعيدة عنّي؟

تمسح

على جبهتي الباردة بحنان، تمشِّط بأصابعها الرخيّة غرَّتي نحو الأعلى، وهي تدندن بصوتها الصدَّاح: "بعيدة عنك".

أكرِّر بعد إشارة من يدها: "بعيد عنك".

وننطق معاً بوجد واحد: "حياتي عذاب".

يجعل الحبُّ انطباعنا عن الحياة أنَّها أجمل: عندما نحبُّ يسكننا الهمس الرقيق، فنتصرف برومانسيَّة

نُحلِّق في عوالم من الأحاسيس العذبة، ونعطي أكثر بلا حدود، لذا يصبح تعاملنا مع الجميع – وليس المحبوبة فقط – مرهفاً

لكن حين تغيب ينسدُّ أفق الحياة.

أحسَّ بلحظة حبٍّ برَّاقة، فأرتجل وجده:

"أطير صوبك

تشهر أضلعي صهيل قلب

يتوسَّل إليك صباح مساء:

ضحى أرجوكِ لا تدخلي في الغياب".

*

تدخل

القاعـةَ المكـتظَّةَ حـيث تقـام أمـسيَّتك القصـصيَّة:

صمت يطغى على المدى

فضاء مشرع على الغياب:

" كأنّه ما في حدا"

كـلُّ شـيء رافـض غـيابكِ: كراسـي الخيـزران في صفرتها الباهتة، طاولة تتصدّر القاعة، غطاؤها الأخضرُ صار كابياً بعدما كان عشبيًّاً، يتلألأ في حياة، الكتب حردانة،

انزوت على لوحة العرض بانتظاركِ

تطالعين فيها

أو تقرئين على الحضور سطوراً في منتهى الرهافة:

تـراتيل شـاعرة، تقـع كلماتهـا في القلـب مباشـرة فتأسـر سـامعها: حلم امرأة في رجل لكـلِّ الأزمنة، غواية القول العذب، ذات مبدعة:

"هل أنا الّتي تكتب هذا الشعر الجميل

أم يكتبني؟"

حتَّى النوافذ

تفـتح درفاتهـا باتجـاه الطـريق، مترقـبة حـضورك البهـيّ، وأنـتِ ـ مثلَ الغـريبة ـ تـرجعين إلى بيت، يغفو على حـدود الـزمن الماحـق، تـسمِّينه عـشَّ الكآبـة الـزوجية، فأهجس داخلي في غصّة: **"هل أستطيع القراءةَ ولستِ معي؟"**

كدت أصرخ بأعلى صوتي:

- أحبُّك حاضرةً / وعندما تغيبين

أتمرَّن على الموت فيك..

يا لها من قصَّة حزينة أبدؤها في الحال:

- استراتيجيتي أن أسلم نفسي للمحبوبة:

أحبُّكِ دون قيد ولا شرط

معلناً بثقة: "مرارة الواقع، مهما قست، يلّينها وجود امرأة تشعُّ بأنوثتها أيُّها الأصدقاء".

وينساح في وصفها: **"مؤكَّد تعرف نفسها: جذَّابة مثلُ حوريَّة البحر**

يتلألأ حولها نور بهيٌّ

مسكونة باللذَّة

مصلوبة تحت سندان الألم

حريريَّة الكفين

برَّاقة العينين

تأخذك إلى الدهشة

فتنجذب إليها كمغناطيس حين تُدنيها من روحك

أو تسقط في الهشاشة

إن يهفُ قلبك عنها

تتقاذفك أمواج الجنون على خطٍّ نار"....

لكم هاتفتها لساعات

وقوفاً أمام كبين عند زاوية شارع المهدي بن بركة، تحت مطر غزير، أو حرٍّ قائظ:

- هل سبق أن قلت لك كم أنت مدهشة إذ استطعتِ جعلي مجنوناً بك!

- وهل أخبرتك؟ كم أنت عاشق مجنون!

تردفين:

- ينبغي أن نعترف: ثمَّة شيء تغيَّر هذه الأيام

فلم تعد العلاقة بين المرأة والرجل شاعريّة كما كانت.

- تقصدين رومانسيَّة...

- بل شاعريَّة يا سراب.

حتَّى

إذا ما بُحَّ صوتها رحت أغني

كي أسليها.

بعد ذلك أروي نكاتاً، بعضها قديم، فتعلِّقين برسالة قصيرة: "هذه أعرفها".

- إذا لم تضحكي على النكتة فعلى صاحبها...

تأمرينني بحزم:

- أريدك أن تمضي إلى أسرتك، تأخر الوقت.

وقبيل دخولي البيت بأمتار تعلِّقين بحروف دامعة:

- لا أصدِّق أنَّنا افترقنا يا عمري!

ترسل

الشمس أشعتها جديلةَ ضوء، تمسح رموش النهار، فتنتعش خدود الياسمين ألقاً عند المنعطف، أوَّلَ الطريق إلى حيِّها الشعبي، لتبدأ أعباء البيت، ومتطلباته الَّتي لا تنتهي...

فإذا ما عاد الليل راحت تترقب حضور القمر لتزرعه وردة على عتمة نافذتها المشرعة انتظاراً للمحبوب

كي تبلغه رأيها:

- قـصَّتك تجـسِّد حاجتـنا إلى الحـبِّ، سـيَّما هـذه الأيامَ المفزعة، وأن نعيش الحياة في وئام.

مضيفة:

- علـى اتساع العمـر توخَ أن تترك هـذا العـالمَ أحلى بصداحك الشهيِّ، كلماتك المشنشلةِ بالألق.

- يـا أنـتِ فسحة للروح، تمتزج كلَّ صباح في دمي، فيزهر على الأرض السلام.

وأردفتُ:

- ضـحى سـأعلن شيئاً مهمَّاً، اصغي إليَّ لو سمحتِ: كـنت أنظـر في المـرآة شـاهدتك مرسـومة علـى بؤبؤ عيني، فقلت: سوف أحبُّك خلال الوقت الَّذي تبقى من حياتي.

- بل أريد أن نبقى - أنتَ وأنا - متعانقين إلى ما بعد الموت..

- إذاً اغمضي عينيك....

صعدتُ عالياً

سَفَر طويل للمرَّة الأولى والأخيرة

ثمَّ استدرت، ولوَّحتُ لك:

- وداعاً.

قلتِ:

- أحبُّكَ.

فتجاوزتُ أبواب الجحيم إلى الجنَّة مباشرة:

لم يكن هناك أحد يبكي، فالكلُّ فرحون بالحبِّ مغمورون بألقه المبهر جداً...

في زحام الشهوات، خلف شفاه مرتجفة، تشتعل حنيناً لقبلاته، حيث تتلامس الشفاه، تضغط على بعضها، كأنَّما تتصافح في تحيَّة حارة، أو تتواصل في شبق حميميٍّ لذيذ، فيمتزج رحيق الأنفاس وجداً أخضر:

"يا للقبلة

أطيب متع الحبِّ

رابطة قلبين تواقين

لشهد العسل".

وأشهق ذاهلاً:

- في انتظارك أعدُّ غوايتي لنصٍّ منتظر على إيقاع دهشة الكلمات من ذاتها، يصبح المستحيل ممكناً: تحبينني أنا لا سواي، فأعود مسكوناً بك، حلمي اشتعال النار في دمي مواجهةً للصمت بعدك، أو مخاتلة الموت، فسلام عليك يوم سنلتقي: أجمل القصص لم نقصَّه بعد...

لكن

لا أحد يذكر، من أمسياتي، قصَّة حبٍّ تخصّني وأنا كثيراً ما قرأت عليكم حنين البوح إلى محبوبتي كتبتُ أحلى ما عندي بسرٍّ عشقي لها:

يا أنت: كم تزهو إذ تحبُّ

لتنثر الريحان في درب الكلام

تقشِّر الظلَّ عن الضوء

فيخضوضر السرد

ترندح لو تشاء

بوحَ يمام..

فمن يعزِّي الآن قلبي الموجعَ بافتقادها المرير....

من شتاء إلى شتاء، يا للمطر، وسيرِنا الطويل تحته: **"كانت تحبُّه.. وأنا كذلك"**.

لم تحتمل قصَّتنا فترة أطول: مضى الشتاء، ربيع، صيف، خريف، ثمَّ شتاء جديد، وانتهينا.

يا للأقدار:

تحت المطر التقينا

وتحته افترقنا

فراحت سماء دمشق تثلج بغزارة

إلى أن سُـدَّتِ الطـرقات، واجـتاح الـصقيع أفـئدة الناس:

"لأنَّك غائبة تصير المسافة ما بين بيتي وكافتيريا الموعد الجميل دهراً

يمرُّ الوقت انتظاراً سقيماً

وجوه بلا ملامح/ شمس بلا دفء

بعدك لا شعر يسكنني/ ولا نثر

كلام

في كلام".

مع أنَّني

كلّما جئتُ بياضَ الورقة، ألوِّنه بكلمات مجنَّحة يحدِّثني عنها: "لا حاجة لِدِيكٍ يصيح كي يوقظها فشمسها مشرقة مدى الوقت".

يا لوفاء الورق، نبالة الحبر الأصيل: "**فهلِ الحبُّ ربيع حروفنا المزهر**

وبعده ذبول الخريف يا أصدقاء؟"

أعترف: الأدب حالة تعويض بامتياز....

حينما سرنا في شارع الزاهرة الجديدة قادمَين كعادتنا من المركز الثقافي، لم أستطع إمساك يدها.

- سراب: أنت خجول حتَّى إنَّك لا تقول لي أحبُّكِ.

- أخشى أن يرانا أحد جيرانك يا ضحى.

هكذا زعمتُ

لكنَّني في الحقيقة أفتقد جرأة المغامرة مع النساء.

ماذا أفعل؟

كنت طفلاً

يقرأ العالم من حوله، ويتلعثم أمام بنت من الجيران، ترمي عليه تحيَّة الصباح، مرتبكاً خشيةَ أن يراني أبي:

اضطرابٌ تجذَّرَ داخلي منذ الصغر، أعوِّضه بالكتابة:

"صنديد مع القلم رعديد في الحياة

أتقنُ الحديث عن الحبِّ

وأتقنه الآخرون عن ظهر قلب:

كاتب ناجح

عاشق مهزوم!"

تواسيني: "لا أحد كامل يا سراب".

ـ صحيحٌ. لكنَّ العلاقة بين طرفي الحياة ـ المرأة والرجلِ ـ أساسُ الصحَّة النفسية.

*

بدا ساهماً مشتَّت الفكر، لا يستطيع التركيز:

عند الغروب بكيت طويلاً

غمَّازة خدها الأيسر تستدرجني

وأنا الغريب لا نجمة ترشدني في الظلام

كم تسقط دموع الشتاء على غيابها!

مناخات إيقاع متقطع الأنفاس، غنائيَّة حزينة، سرد شفيف: حين يتعذر لقائي بك – لأسباب تخصُّك دائماً – لا شيء يستولي عليَّ إلَّا النعاس، كلما غفوت قليلاً حلمتُ بي، أبحث عنكِ، ثمَّ نسير معاً، تمسكين بذراعي الأيمن، فيمتعض الأيسر في انزعاج. حتَّى إذا ما حاولتِ قطع الشارع، برعونة كعادتك، خفتُ عليك منطلقاً

خلفك في ذهول، فاستيقظتُ فزعاً، لأبحث عنك من جديد...

انتهت قصَّتي الَّتي ختمتها بالسؤال الذبيح: "ألا أيُّها العظيم ربِّي: كيف تتركني على سفوح أرضك الشاسعة، لا خارطةَ توضح مكاني وسط البشر، لا روزنامةَ تعرِّفني التاريخ: هل أنا في اليوم الرابع الخامس، السادس، أم تراك استويت على العرش في يومك السابع: فأين حوائي إذاً؟"

صفق الجمهور.

امتعض كثيرون.

جاملني بعضهم:

- قصَّتك عظيمة.

كاشفني آخرون:

ـ بصراحة لم نعرف ماذا تريد أن تقول فيها!

أمضي خارجاً من القاعة

أدندن مع هُدى حداد:

" أنت وحدك يا ليل تعرف أحزاني..."

هكذا

على غير عادته، يرجع سرابُ المنسي إلى بيته وحيداً

يخاطب ليله الطويلَ

بلا نهايةٍ

إلى أن تعود ضحى المحمود

بسلام..

أبعد من نجمة

لم يكن خطأ أن أحبّك بهوى شرقي
وأن أقترب منك بخطوات رجل
اعتاد الهزيمة

- **أحمد تيناوي**

(1)

بائعة الورد الصغيرةُ الشقراء

ما إن رأته يلج مدخل البناية الموصل إلى قاعة اتحاد الصحفيين حتَّى ابتسمتْ ببراءةٍ، مع نظرات شزرٍ من رفيقيها، الصغيرين مثلها، وغيرةٍ حانقة فسوف يخرج كعادته، ويشتري منها وردةً جوريَّة يقدِّمها لصديقته: **"قدرٌ وأيُّ قدرٍ،**

أن ألتقيها على غير موعد

لتصبح هوى دائماً

ويستثار داخلي طوال الوقت".

- اخترقني حبُّك، كأنَّه الصاعقة: كان المطر غزيراً مثل شوقي إليك

وصباح مزيَّن بياسمين ناصع البياض..

يخفض صوته كالهمس:

- هذا المساء لن أفعل شيئاً سوى أن أشعل نار الوجد في قصَّتي، ثمَّ أحلم بك مدى النوم.

وينساح مع ذاته: **"يا سيِّد الترحال إلى محبوبة:**

لا مشي ينسيك خطواتها العجلى

تلحق بها طوال الطريق

فحلقك الآن يشقِّقه الظمأ

عطب في قدميكَ غصَّة حارقة في القلب

حنين شفتيك لمبسمها الندي

تلهُّف أذنيك لسقسقة كلماتها

في السماء السابعة كنت تطير محلِّقاً بالعشق ترقِّص ذاكرة الوقت طرباً معها".

في الحقيقة:

نهدي الورد، وقوارير العطور الفوَّاحة، نقرأ الروايات، القصص، والشعر الغزلي، نستمع إلى الموسيقا، والأغاني العاطفيَّة حتَّى نشعر بالقرب ممَّن نحبُّ، وعدم إمكانية مفارقته، عندئذ تهجرنا الوحشة وخوف العيش بوحدة قاتلة....

يتعلَّق بذراعها

بينما تضع رأسها على كتفه بغنج طلباً للأمان:

- كأنَّ الأحداث، وما جاءت به من مآس وفجائع، نوع من الإرهاص بخلاص مبني على التفكير بعمق: لماذا حدث ما حدث؟

وكيف نعمل على عدم حدوثه مستقبلاً.

- عندما لا يكون حوار يضيء دروب الحياة إلى الحياة نعيش سجناء معتقل الصمت والعنف

يزمجر الرصاص، فتمتلئ القلوب بالذعر ويخطف دويُّ الانفجارات الأبصار...

- أن نحتفي بالحبِّ في هذا الزمان الجحيمي ذو دلالة عميقة تبعث على الأمل بعودته إلى حياتنا والقضاء على الكراهيَّة العمياء.

في غمـرة الآهـات المـؤلمة، وصـمت العقـل التقيـنا يـسكننا وجـع مقـزِّز، لا نـدري متـى يـرحل: وطـن نـازف يتألم، وسؤالان حارقان:

"لماذا ترك المثقَّف حصانه وحيداً؟

وهل تكفي الأجنحة كي أطير بلا سماء؟"

ثمَّ نمشي متناسييَن القلق، والتوتر، اللذين تشهدهما البلاد هذه الأيام:

- سـأمتطي ظهـر غـيمة، تمـضي بعـيداً بـين الـبلدان حتَّى إذا أمطرت وجدتني في أرض حبيبي.

محـبوبتي حكـايـة عمـري الـذي ابـتدأ حـين صـادفتها: تبزغ الشمس إن تضحك

يقبع الليل أبديَّاً لو تخاصمني..

خلال الطريق

الطويـــــــــــــــل إلى بيتها جلسنا تحت شجرة ــ لهـا شـكل ديناصـور ــ علـى مقعـد خـشبيٍّ بلـون عـشب الأرض من حولنا...

أنـا وهـي نـشترك في أنَّنا نحـبُّ المـشي كـثيراً: التقيتها كمن التقى جزءاً منه أضاعه منذ زمن

لا أقول القلبَ، فهو ينبض جهةَ اليسار في صدري، بل هي روحي، وجدتها حين التقينا، كأنَّها انتعاشة الحياة المتجدِّدة بعد موت:

"أحبُّها لأنَّني أحبُّ روحي

كيف نفترق إذاً؟

منذ

حلَّ جدُّنا آدم على الأرض، راح يبحث عن نصفه الآخر، وفعلت ستُّنا حواء بالمثل، بعدما تاها عن بعضهما: ترى هل أدركا حلاوة الحياة معاً، وجفافها متباعدَين؟

حنين يسطِّر دفاتر الوقت حروفاً للغد الآتي، ويحلو الكلام:

"الحبُّ فنٌّ صعب

لكن من السهل تعلُّمه يا أصدقاء".

تتأجج عيناي فرحاً بها، أصطاد ضحكاتِها العذبةَ خارجةً من القلب، لتسقط في قلبي مباشرة، أقرِّب لساني من شحمة أذنها، أدغدغها. فتنهرني:

- سأجعل الديناصور يأكلك!

تهطل غيمة ذكريات عطرة: كان يوماً ماطراً، سحب حالكة، تسدُّ نوافذ السماء مندفعة بشراسة نحو الشرق....

- حـين شـاهدتكِ، ظهـر المكـان معـتماً مـا عـدا عينيك، تضيئان في ألق ساحر:

عبير أحرف

تنثرينه بلون الشفق

مدى بوح مثقَّل

بسهـاد لذيـــــذ..

- لا يهتمُّ مجتمعنا إلَّا بما تكتبه المرأة عن علاقتها بالرجل، أمَّا المواضيع الأخرى، فلا تثير أيَّ اهتمام!

أردف بصوت مسموع متجاهلاً ملاحظتك القيِّمة:

- عندما تقرئين الشعر يتوهَّج قلبي، لقد سحرتني منذ اللقاء الأول. أعتقد أنَّ ناراً تجري في عروقك بدل الدماء.

يا قصَّتي أحاسيس تختلج في قلبي، يبوح بها لمن اصطفاه حبيباً، وارتضته روحي خلَّاً وفيَّاً، هأنذا في حضرتها:

- يا لك من قدِّيسة تحافظين على سرِّ الحياة فينا تطهريننا من آثام العمر وغبار الأيام، فانظميني على خطى الروح قصيدة يا ريحانة الشعر.

ثمَّ رحنا

نداعب أطياف الحياة
ونصنع الأمل
نبني حلمنا
لبنة
لبنة...

(2)

أنا
لم
أعد
أحتمل
غيابها

معجونة بالرهافة، كلماتها تنعش قلبي، يفتح لها القمر نافذته مشرعة على البوح، فيخفف الليل سواده العاتي، وأنساح في وجد: **"يا من لا تحبُّون:**
كيف تمضغون خبز حياتكم بلا ملح؟
هل تكتبون؟

حتَّى كلماتكم لها طعم الرمل من دون حب!"

مضيفاً:

- فاكتبوا على قبري اسم محبوبتي، تستهتر بي

ولا تدعني أسافر معها، على الرغم من هذا كلِّه أحبُّها.

الحبُّ طقس، يجعلك ثملاً على الدوام، فتكتب اسم محبوبتك على صخرة عالية، جذع شجرة عتيقة، أو تحفره وشماً على جدران فؤادك إلى الأبد:

لا تحسُّ ظلال تعب وأنت معها
عيناها لامعتان من شدَّة الأنوثة
مفعمة برائحة الطيب
نبعاً لفوح ياسمين..
وقت

يبزغ من شغاف القلب: يا النجمة ازدانت بألق الحضور رغم الغياب، كم أتمنى المضيَّ إلى بيتك أعلِّق على بابك وردة جوريَّة مع قصاصة ورق، أدوِّن عليها: "كلَّ لحظة تخطرين ببالي، فأستحضر صورتك كي أتنفس بطراوة، حتَّى إذا ما سقطتُ في المرض استعدت راحة كفِّك كالحرير، تمسح على جبهتي فأشفى في الحال".

*

كان

حـين يجلـس علـى كرسـيِّه المطـلّ علـى الـنافذة الخارجيَّة، تطالعه نجمةٌ تشعُّ قبالته....

عندما أشار لصديقته السمراء صوبها قالت:

- تلك أنا

فتذكَّرني كلَّما شاهدتَها.

هذه المرَّةَ، حاص كثيراً، قدَّم كرسيَّه

وأخّره مستطلعاً السماء دون فائدة:

"أين اختفتِ النجمةُ البهيَّةُ يا ناس؟"

تساءل في سرّه

ثمَّ خرج إلى البلكون

مسترجعاً أيامه معها

وحديثَ الهاتف الطويل:

-أعدّ الثواني محاذراً فقدان الحرارة

أو انشغال الخط!

- ماذا لو رنّ هاتفي بعد فوات الصبر؟

- يسيل ألماً رعافُ صوتي

على شفة المساء

ينثال حزنٌ عميق
يلطّخ سمرة السماء.
ـ يا الل حكيَّك حلو
وصمتك أبلغ من كلام
يا الل بوحك مشتهى
وكل همسة منك ابتسام.
ـ أحلى من الورد
حكيي معك
وأشهى من الشهد
لو أسمعك..

(3)

يجلس
جوارها
بـدا الفـرح إلى يميـنه، الـبهجةُ يـسارَها، ويرفـرف عصفوراهما الأخضران متوثبَين في صدريهما:
"يا بوحها يؤجج إحساسي بالحياة".

- حبيبي: ثلاث نداءات باسمي

وتظهر نجمة في البعيد.

سهرا

حتَّى غطَّاهما الليل بعباءته الداكنة، فغصَّ في شهقة مؤلمة، كأنَّ ذئب الفراق عضّ قلبه بقسوة وشرقت عيناها بالدموع، حين دخل الفجر عليهما

متَّكئاً على كتفها

تطوِّقه بيسراها الرخيَّة في لهفة..

- يسعدني اعترافي بأنِّي أحبُّك: ندى على قلبي ولوج حياة أكثر تلهُّفاً مدى الوقت، انعتاق الجسد في تهويمات اللغة الشبقة...

يكاشفها: **"أحياناً أمضي تاركاً على منضدة الحاسوب قصيدة**

كتبتها على ورق ملوَّن

تسمينها كلاماً في الحبِّ

ولا أعترض:

ما أسعى إليه أن أُزيِّن يومك بأطياف ممتعة فتعاودين الإغفاء كعادتك حتَّى الظهيرة

وإذ تطلّين من نافذتك الشرقيَّة تفاجئك شمس دافئة

فتتساءلين: هل انقضى الشتاء؟"

تأخـذ فريـزة، تغمـسها بالـسكَّر، تقـضم نـصفها، وتـدسُّ النـصف الآخـر في فمـي، فأتلـذذ في المـضغ الـشهيِّ على مهل:

- يصعب نسيانك!

حـاول أن يقـول كلمـة تـبلِّل قلـبها، فـراح يـردد بـلا توقف:" أحبُّكِ".

وبلا توقف:" أحبُّكَ".

في مهبِّ العشق العاصف فرش لها الأرض ياسميناً:

تغـرد العـصافير علـى نافـذتك / مقفـرة نـوافذ البـيوت الأخرى

عطرك يجذب العصافير لتوقظ الشمس

فتبزغ ضاحكة وأنت تنشرين غسيلك

يمرح الهواء طليقاً

تتنسم رئتاي عبير سرور غامر..

مستقِّلاً

حافلة نقل عامَّة، أرقب الطريق إليك: حديقة خضراء على اليسار، تقابلها بضعة محلَّات، فدخلة عريضة، وعلى كتف حارتك دكانتا سمانة تبيعان الخضروات والفاكهة...

قبل أن أصل إلى بيتك

ممتشقاً طوله في علو ورفعة على البيوت المجاورة

أشمُّ رائحة عطرك المميَّز "بليجرز" أي فرح أو سعادة، فينتعش قلبي مبتهجاً، وأعلن بالفم الملآن:

- احبيني أشرع لك متاريس قلبي وسعَ العالم.

- لماذا تحبُّني؟

- لأنَّ قصَّتي معك ستخلِّدني في دفتر الزمن.

- يكفي أن أتذكَّرك لتعبق الطرقات برائحة الورد الجوري.

- ستظلُّ الأرض تدور، ولن أكفَّ عن حبِّك أبداً.

كانا

يجلسان متجاورين، أمامهما طاولة مزيَّنة بغطاء من الدانتيل، فيداعب قدمها اليسرى باحتضانها بين قدميه الباردتين

بينما إبريق المتَّة النحاسي يبقبق مياهه

وينفث البخار من خرطومه الطويـــــــل...

سماء دمشق تثلج بغزارة، وإن مضى إلى بيته لن يضلّ الطريق. لذا سرعان ما أعدّت قهوة الوداع، كي يتاح لها تجهيز حقيبة سفرها إلى الأرجنتين صباحَ الغد.

*

ترقّبها

وسط قاعة المسافرين: **"ها قد حان الموعد وليس بكَ طاقة على البكاء".**

وفيَّةً، لم تنسَ أن تقدّم لك وردةً جوريَّة، تعلّقها بفتحة كنزتك النبيذيَّة، مع ذلك تحدس بأسى داخلك:

"لم يبقَ لي

بعد سفرك القصيِّ

إلا نجمة السماء

تهديني إليك كلَّ حين".

(4)

أخرجها

من رأسه، عندما صحا فجأة، ولم يجدها

فراح يلاحقها عبر سطوره المتوثّبة.

قلتُ: "**سأكتب عنها قصَّة**

تُحضرها من البعيد".

المرأة كاتبةً لمآرب شتى:

فإن كانت بلا عمل، كي تتسلى خلال الوقت الطويل، وتشتهَر بين صديقاتها الغيورات

أو مطلَّقةً لتنفِّس عن روحها بعض قهر الوحدة وحرمان الزوج

عزباءَ تتألَّق بوهج قلم، يزيِّن شبابها المهمل

أو متزوجةً تتنسم خارج جدران المنزل هواء يخلو من أكسيد الطبخ، والجليِّ، والغسيل...

هل هو الواقع حقًّا؟ أم الإيهام به؟

محبوبتي

خارج حدود الرؤية

كما لم نرها من قبل، تقترف الشعر
القصَّة القصيرة
وربَّما الرواية مستقبلاً....

منذ ذلك اليوم، حين شاهدتهُ مع أخرى، ضارباً عرض الحائط بمشاعرها، وهي عروس بعد، فقدت إلى الأبد ذاتها:

"ما أصعب أن تهان المرأة
في عقر سريرها!"

ليست المشكلة أنَّنا مخلوقون غير باهرين
هكذا الحياة: يولد الناس مختلفين في جمال جسومهم
قدراتهم الذهنيَّة ألوان عيونهم
حتَّى بصمات أباهمهم

فلئن كان من مهمَّة المقربين ــ لا سيَّما الزوج ـ أن يزيدنا جمالاً من محبته، لأنَّه مرآة لنا، ترينا أحلى ما في دواخلنا...

لكنَّه
جرح العمق
لا أدوية العالم تشفيه:

- فلماذا سمحتِ له بالدخول إلى حياتك؟ والتسبب في إيلامك إلى هذا الحدِّ الفظيع سيِّدتي؟

: يا أنت لمَ دخلتَ طفولتي / وسرقت الحقيبة الزهريَّة؟

لماذا أطفأت سراج العشق / وأنا أكتب قصيدتي

فلم أرَ وجه حبيبي المنير مثل بدر؟

تساررنني أنَّها لم تقبله قطُّ في فمه، ولم تسمح له بذلك. بل احتفظت بهذه القبلة لي، لأنَّني حبيب عمرها...

رجع بوح يؤلمني، فأتشردق بكلماتي:

"لديها أطيب قلب عرفته

فما أقسى الحرمان

تكابده امرأة

تضجُّ بأنوثتها!"

لذا أظلُّ أمشي، حتَّى يشرب الشفق الذاهل ضوء النهار، مصاباً بالبرد الدائم على مدار العام كلِّه....

يومذاك

خرج من بيتها

تسكره عذوبة الوقت الذي قضاه معها، مشى في

الطريق المؤدي إلى شارع الأمين تحت موسيقا المطر الهاطل بإيقاع رومانسي بديع: "**رائحة طيب تركتها خلفها**

أتنسَّم عطرها مع كلِّ خطوة أمشيها".

تذكَّر أنَّه يحمل مظلَّة، فتحها، وهو يقمز في حماس صارخ، فبدت ترفعه عن إسفلت الطريق الذي عُبِّد حديثاً، كأنَّه ينقِّل قدميه المتحفزتين بفرح طاغ فتلمسان بللور الأرض لمساً خفيفاً، مثل بهلوان سيرك: "**بانتظار موعدنا غداً**

أرقص على إيقاع النار

مسكوناً بك طول الوقت".

يتجلَّى الحبُّ في تشهِّي ذكر المحبوب، والحنين إلى لقائه، معرفة خلجاته وأسراره، مع التسليم بعيوبه مهما كانت:

عندما تحبُّ يمكنك أن ترى أبعد ممَّا تشاهده عيناك

وتسمعَ أعمق ممَّا تنصت إليه أذناك صدِّقني...

*

يلهيني البحث عن نجمة السماء، فلا أسمع دعوات الزملاء بالقدوم من البلكون، كي أقرأ قصَّتي:

قلبه دافئ، روحه تحتضن العالم بأسره، تسمَّرت نظراته عندها، فمدَّ يداً مرتجفة، يسلِّم عليها، معلناً البشاشة كرمى حضورها، على الرغم من أحداث مؤلمة تمرُّ بها البلاد:

"تنساب طراوة الحياة

في أرجاء جسمك عندما تصافح امرأةً

تحبُّها يا صديق".

بغتة أنتبه

فأدخل القاعة مسرعاً، إذا هي تملؤها شغباً كعادتها، لذا أفتح أوراقي، وأعاتبها:

لماذا تخلِّفين جراحك في قلبي

وتحلِّقين؟

تتركين كلماتِك عابقةً في حلقي

وتصمتين؟

عطرَك معلَّقاً في دمي

وتسافرين؟

ظلّت أسئلتي تترنَّح، في فضاء القصَّة، بلا أجوبة

فاندهلت:

"هل أنا عاشق

يكتب محبوبته على الورق

كي تولد نجمة في السماء؟"

وإذ تذكَّرت بائعة الورد الشقراءَ

نظرت من النافذة لم ألمحها، لا هي، ولا رفيقيها الصغيرين مثلها. فحدست: **"يا لمعجزة الوردة الجوريَّة**

تختال رشيقة على ساق أخضر

لا يضيرك شوكها القاسي لو أدمى أصابعك: ابتهال صلاة في معبد الحب

همس عذوبة لمسة حنان..."

نقدِّم الورد عادة كي نعبِّر عن مكنونات قلوبنا، وما نمتلكه من الفيض العاطفي، لأنَّ الحبَّ انتعاش أرواحنا بالخصب، نبض قلوبنا بشكل أسرع:

"يزداد عدد نبضات المحبِّين

وهم في حضرة من يحبُّون

أو يستمعون

في إصغاء

لحديث عنه".

لـيس أجمـلَ مـن أن تقـدِّم لمحبوبـتك وردة تحمِّلـها أشواقك الرقيقة

فإن كانت حمراء عنت الحبَّ العميق

وأنت الوحيدة في حياتي...

(6)

بُعيد منتصفِ الليلِ

ومسيرةٍ ليليَّةٍ على القدمين

جلستَ خلالها فترةً طالت تحت الشجرة على شكل ديناصور

تدخل غرفتك المستوحشةَ، والبائسةَ الآنَ

على الرغم من جمالياتِ الجدران

وما علقتَ عليها من لوحات فنيَّة

فتشمُّ رائحة وردة جوريَّة

تعبق من خلال كنزتك الَّتي أصبحت كالحة

تستهجن أوَّلَ الأمر

لكن

حين تنظر من خلال نافذتك

صوبَ السماء

إذا نجمةٌ

تشعُّ

في بهاء..

ظلُّ القمر

"من أحبَّكِ، وإن مات، سيحيا..."

بانت يمامةً
تهدل على شباك انتظاره:
"ترتسم أمامي شبحاً يأكل أيامي
فهل أقوى على نسيانك
وينتهي القلق؟"
العشَّاق
خلال فترات انتظارهم، تتماوت أجسادهم
كأنَّ الروح في إغفاءة الحبِّ: جسد لا ينبض
روح بلا توثُّبها المعتاد...

ضجرةً تترقب مجيئه على أحرَّ من الجمر

شعرتْ بأنَّ خطواته تتقدم نحو الباب

ففتحته.

أضاءت مصباح المدخل، مع أنَّ الشمس ساطعة. بعد ذلك تحركت بسرعة، نظرة عجلى إلى غرفة الاستقبال: إنَّها مرتَّبة، وعلى الطاولة مزهرية ورد ملوَّنة، مع رواية عابر سرير، وبضع ورقات مسطَّرة معطَّرة...

تحدس داخلها:

"كأنَّه دخل متاهة الحرف متأخِّراً

كي يُدخل قراءه عالماً مترعاً بسحر الأدب

إذ يراوح بين الواقع والخيال مع لمحات شعر وتفصيلات ثريَّة مدهشة"....

صار

في الآونة الأخيرة، يحرص أن يقرأ لها كلَّ ما يكتبه حتَّى لو لم يكن يخصُّها، كأنَّه لا يكتب إلَّا كرمى لعينيها....

ذات قمر، ونجمة في السماء، دنت أخيراً من يدي، أنظر إلى المستقبل: نسير في زقاق العشَّاق وسط دمشق القديمة قريباً من قصر العظم، تشابك أصابعي أصابعك

في توحُّد مكين، ثمَّ نجلس على مقعد أخضرعتيق هدَّه تعب السنين

كلُّ شيء غارق في العتمة إلا عينيك

تضيئان كعادتهما

وأنا مازلت أدبِّج الكلمات

لتفترشي القصيدة من جديد:

"قاصٌّ مغرم، ضاق به السرد

فقصَّ حكايته شعراً

دون أن يحترق بلظاه".

رجع قريب في رسالة مفتوحة على القلب حتَّى أرذل العمر: **"لن يسقط الحبُّ في الكهولة**

فلا تفسدوه بصرير أقلامكم".

أرانا عجوزين

ابيضَّ شعر رأسيهما، وغسل الثلج شاربيَّ النحيلين، أجرجر قدميَّ على الطريق الَّتي مشيناها سنوات، وتجود يداك بدعوات أن نبقى معاً إلى أبد الآبدين.

ها نحن نمشي، ولا نشبع، كعادتنا، من المشيِّ تتشبَّث يميني بيسراك، ونتعكَّز على بعضنا، تائهين على الطرقات المخضوضرة، لكن حين تلوِّحين مودِّعة:

- مع السلامة.

يقفز الطريق مقفراً في وجهي، يعاقر الليل الأسود مدينتي.

يصارحها:

- عندما بدأت الكتابة شعرت بأنَّ شخصاً فوق رأسي، يراقبني طوال الوقت، فقتلته مؤخَّراً، ورحت أكتب بحريَّة الآن.

- لماذا قصصك عن الحبِّ هذه الأيامَ بالذات؟

- لأنَّه خلاصنا ممَّا نعانيه الآن، حيث بدأ السواد يحتلُّ القسم المضيء من أرواحنا!

ثمَّ يسهب في شجن: "من حقِّنا أن نفتتح نهاراتنا بزقزقة العصافير

لا أزيز الرصاص ودويِّ المدافع

أن نرى جدران مدينتنا يعربش عليها الورد والياسمين

لا أوراق النعوة في كلِّ مكان.

نستأهل – نحن السوريِّين – أن نشرب قهوتنا تحت زرقة السماء، وضوء القمر البهيِّ

لا بين حيطان حمَّاماتنا السميكة

وأن ننمِّقَ قصائد الحبِّ

لا نكتب شواهد قبورنا بأيدينا!"

لقد صدمته الأحداث الجاريَّة، وانعكست على حياته خوفاً مرعباً، وخيبة أمل، فرأى فيها رمزاً لوطنه الآمن بعدما صارت حياته سلسلة هروب من مستحقات العيش باهظ الكلفة فأرادها قربه:

- المرأة هي الملجأ دائماً.

هكذا يقول.

بعد ذلك

وهو على الطريق إلى بيته، يستعيد كلمات الخالدة إلفة الإدلبي: "**دمشق حمامة وديعة، تطوي الجناح على الكسر، وتظلُّ صامدة بإباء وشموخ: دمشق يا بسمة الحزن، يا حمَّالة الأسى، سرُّ بقائك الأزلي هو هذا الصمود في الكوارث والويلات**".

لبست أساورها الذهبيَّة، وعقدَها الأحمر، أخفت بضع شعرات بيض تحت منديلها النهدي: "**كالعادة سيمرُّ اللقاء سريعاً**

يُسمِعُني أجمل الكلمات:

ـ اشتقتُ إليكِ.

ـ أحبُّكَ.

ـ أنا أكثر".

تطوِّق ذراعاه القويَّتان خصري

ليضمَّني إليه

فهو أطول مني. ينظر في عينيَّ بثبات، منحنياً أكثر على وجهي، كيما تزرع شفتاه التوَّاقتان قبلة على شفتيَّ المغمضتين، أتمنَّع، يرتشف خمرة خدودي في اهتياج. فأدفعه عنِّي بكلِّ قوتي:

ـ مهما تبحر بعيداً لا بدَّ أن تغوص في موجي العارم يوماً ما.

ـ لن تستطيعي تحملي، وتلفظيني، كما لفظ حوتُ البحر النبيَ يونس.

الانتظار ممض: **"أترقبك تحمل إليَّ الفرح لروحي الخفقةَ السكرى ولجسدي شيئاً من الرغبة فيك".**

- وأنت بعيدة: كم بي شوق لامتلاكك فتنبت لروحي أجنحة!

أنسته بدفء حضورها الطاغي نفسه:

- يئن الوجع في أوصالي، لا حول لي، وأنت تغيبين عني، أمسي كسولاً، تتعبني أنفاسي، فألهث كالصاعد في أقطار السماء، تلملمين شتاتي بمشوار عبر حواري

دمشق العتيقة، بعدما أضرمتِ شغاف قلبي، إذ ترشينني بحفنة ماء، تبرِّد النار المتأججة داخلي كالسعير....

امرأة في روح ذكوريَّة، لها شواغلها، وأحلامها الجليلة، طلباً لمستقبل باهر، تبنيه بلا كلل. باختصار: سيِّدة مدهشة، أشبه بالأميرات، تمكنت من عاطفته ليندى بالغيرة عليها حتَّى من وردة جوريَّة اشتراها من الطفلة الشقراء، احتضنتها أوَّلَ الأمر، ثمَّ شمَّتها بشغف. لكنَّها رفضت أن تأخذها بحضور أصدقاء جدد، فراح يأكل وريقاتها الذابلة، وهو يردِّد في شجن: تحبُّني، لا تحبُّني...

إنَّه المحبُّ

لفرط حبِّه، حتَّى في أقصى درجات التصافي يخشى الهجران، فتراه حزيناً طوال الوقت كثيراً ما دخل عليه زملاؤه في العمل وجدوه في حالة توهان

يجفِّف دمع عينيه الشهلاوين.

تتذكَّره، يتحدَّث في ثقَّة عاليَّة بالنفس:

- المرأة ليست نصف المجتمع فحسب، إنَّما قلبه النابض حبَّاً، وحناناً، في بهاء حلم لذيذ، وهي عشقي الأزلي يا ضحى.

ثمَّ يلتفت نحوها:

- في بريق عينيك قوَّة، أمدَّتني بالإلهام

فكتبتُ

وأبدعت

عبر نعومة كفيك لمست قلب الحنان

من عذوبة بسمتك تحدَّيت صعوبات الحياة كلَّها: فيا أيَّتها الساحرة

احبيني لتوقدي بي نار الخلود إلى الأبد..

قلبها ينبض بقوَّة، وهي تتوقع أن يقرع الجرسَ في أيَّة لحظة، مع أنَّ الباب مفتوح، فليس من عادته الدخولُ قبل أن يؤذَن له، لذلك تحدس داخلها: **"أزهر مثل شجرة الحياة.. وأنا أهجس باسمك حبيبي"**.

ما إن يصل إلى حيِّها حتَّى يشمَّ رائحة عطرها، ويثور في داخله الحبُّ، تستقبله بحفاوة، فيزدهي بفرح عارم متقاسمَين متعة اللقاء:

-لكأس المتَّة معك مذاق العسل ممزوجاً بنكهة همساتك، ورقَّة حروفك المكتوبة بحبر القلب قصائد عشق على ورق الروح...

لكنَّه

فجأة يمسي قبضةَ ريح:

ـ اضطررتُ للذهاب إلى بيتي، ابنتي مريضة.

هكذا يخبرها برسالة عبر الموبايل.

حزنتْ، فلن تراه اليومَ، غير أنَّها، مثل العادة، تعذره: "**مسكين.. ابنته مريضة يا ناس!**"

يشحب وجهها ابتسامةَ قبول بالأمر الواقع:

"لماذا أحببتك، وأعرف أنَّك متزوِّج؟"

- لأنَّه النصيب، قد يقع الشابُّ على فتاة لا تناسبه لتصبح حياتهما الزوجيَّة وبالاً، فتنشغل بتربية الأولاد ومتطلبات البيت، تسلِّيها ثرثرات الجارات والأقارب. بالمختصر: غالباً ما تجد الزوجة تعويضاً عن حالة الفشل العاطفيِّ هذه. لكن ماذا عن الزوج إذ تقع الفأس بالرأس؟

ندت عيناها بمرارة: "**سوف يُسهِّدني فراشي ووسادتي خالية منك**".

اعتراها الخوف: "وحشة تقهرني

وأنت بعيد عند زوجتك هناك".

تسأله بصوت مكسور:

ـ هل تفهمك مثلي؟ تمسح عن روحك يباس الوقت المضني هذه الأيام؟ تراها تحبُّك؟

ـ أعترف لك: أكتب لأنَّه لا أحد يسمعني. هذا في جذر المسألة، ذلك أنَّ الكلام، إذا انحبس في داخلنا يصير متفجراتٍ، أو لنقل غازاً خانقاً، يعرقل تنفسنا فنختنق ببطء.

ينظر في عينيَّ مباشرة على غير عادته:

ـ دعيني أبسِّط المسألة أكثر: يصبح الكلام المحبوس لقمة غير سائغة، تدخل مجرى الهواء، لا بدَّ من إخراجها حتَّى أتنفَّس فلا أموت، لذلك أنصح الجميع أن يكتبوا، لينفِّسوا عن همومهم، ففي الكتابة راحة:

"حتَّى لو لم تجد أحداً يسمعك

فأنت تسمع نفسك

وهذا ضروري

لتعيش بشيء من السلام الداخلي

يا صديق".

ـ والقراءة؟

ـ اقرئي ما شئت، وإلَّا ما كان الإبداع تقدميَّاً!

ودت

لو تمضي إلى بيته كي ترى شكلها، لونَ عينيها وشعرها...

فضول

يستبيح تحفظها المعتاد للسؤال عن زوجته تلك: **"هل هي أحلى مني؟"**

كثيراً ما يمازحني:

ـ على بابي واقف قمرين.

لا أهتمُّ، فحبِّي له زيتونة خضراء، لا تذبل مدى العمر. حبِّي مطر، يرطِّب قلبينا، وعاصفةٌ تقتلعني كلَّما تركني وحيدةً باتجاه بيته وأولاده...

آنئذٍ ينام في ذاكرتي، لأستحم بعطره إلى أن يأتي موعدَهُ التالي، فتعشوشب روحي عند حضوره

يصطفق قلبي عصفوراً بين ضلوعي الواجفة تتدفق شراييني نبضاً موجعاً، فأتمنى لو أطرده خارج حياتي، وأستريح.

*

على طريق الذكريات أسترجع لقائي بك: متعبةً كنت، وحيدةً حدَّ الوحشة، تمنيت يداً، تمسِّد شعري، نظرةً، تسرق من عينيَّ أرق الوقت الضائع طوالَ الوقت، صوتاً دافئاً، يهدهدني حتَّى أنام بلا كوابيس:

تتمنى أن يأتي، فيرى الزهور قبل أن تذبل، يقرأان معاً - كل واحد صفحةً، مثلما اعتادا، من رواية عابر سرير - أو يُسوِّدان بعض الأوراق مناجاةً غزليةً رقيقةً، قبل أن يطيِّرها الغياب عن الطاولة المستديرة:

- أحبُّكِ كما أنتِ، أعشق سواد شعرك المملَّح ببعض الثلج، لون عينيك، شكل أنفك اللطيف، شفتيك القرمزيتين، نعومة كفيك، صغر قدميك، وشامة، تتوضع أعلى النهدين...

- أرجوك خذني إلى مشاتل روحك

والحبق يتفتح بين يديَّ كلما صافحتني.

- كأنَّني مصاب بعطش، لا يشفى، بعيداً عنك.

يفيض بكلِّ نداه حين يحادثني، فأرمي حزني على رصيف الوقت، وأمضي عاشقة بامتياز:

"يحتاج الرجل إلى الثقَّة

والمرأة إلى الاهتمام

يطلب القبول

وهي التفهُّم الرهيف".

ستحضِّر له فنجان قهوته الوسط

مع أنَّها لا تحبُّ الأمور الوسطى أبداً:

"هربت إليك

أتخلص من جسد خشَّبه اعتياد الملل

زرعتك شمساً في عتمة ليلي الطويل بلا نهاية توقظ أنوثتي

وتشكِّلني امرأةً للهفة من جديد".

على درب الحيِّ الشعبي تقطف لي، من سور ذلك البيت عند المنعطف، كمشة ياسمين ــ كلانا يحبُّ الزهر الأبيض الناعم ـ أرميها بين نهديَّ، تتبعها همساتك ساخنةً في أذني:

ـ أصبحت تلك الزهرات عابقة بالشذى الفتَّان!

وترجوني:

- لو سمحتِ: ممكن أشمُّها الآن!

فجأة أنتبه، كأنَّ القمر يترنَّح فوق رأسينا – بدا قريباً، يتدلى كقرص من ذهبٍ، يعكس وجهك الطافح بالشوق - فأمدُّ يدي، أشير إلى نجمة تنزوي في ركن

مهمل بعيد: "هذه أنا".

ـ وأنا أين؟

تسألني بعفويَّة الأطفال.

ثمَّة غيمة داكنة، تحجب عنا نور القمر الدافئ. فتعمُّ العتمة أرجاء المعمورة. وأجيبك بتلقائيَّة:

ـ حبيبي أنت ظلُّ القمر.

*

تعيد رتابةَ الوقت سكينَ انتظار إلى صدرها: بعد حبِّك لم أعد أشتاق لأصدقائي، تحوَّلوا ظلالاً في حياتي بعدما دخلتها، وأغلقتَ خلفكَ الباب. ها هم يعتبون بلا كلل:

- من لقيَ أحبابه نسي أصحابه.

وأبتسم بلا كلل أيضاً:

"ما يعنيني من أقوالهم

فأنا مكتفيَّة بك

مفعمة بحضورك إلى درجة التخمة

أصبحتَ ملء روحي

أحبُّك يا سراب".

يَرجع الصدى: "ألف أحبُّك يا ضحى".

ثمَّ يهمس في حنان: "تعلمت منك مبادئ العشق: كيف التوحُّد بالمحبوبة، وهي بعيدة، لأنَّها منى القلب ومبتغاه".

كان يقول لها: "أموت حبًّاً فيكِ".

تردُّ عليه: "أحيا بحبِّك طوال العمر".

رسالة SMS مبكرة: "صباحك ياسمين".

بعد العصر: "مساؤك فرح معطَّر".

وقبيل النوم: "ليلك فوضى حواسٍّ هانئة".

تكمل: "كم أنتظر قدوم الغد

لأنَّه يحمل الأمل بلقائنا".

تغمض عينيها على صورته:

"**في هلوسة الغياب أعلنك ماء روحي**".

استعذاب يدها لملمس يمينه الناعمة، واستطابة فمها لكلِّ ما يقدمه لها....

تضمُّ ذراعيها، كي تحتضنه في لهفة: همسات حرَّى، تنهدات موجعة، تتحرك الشفاه للقبلة: إنَّها فن الحبِّ

هكذا يخبرها

مردفاً:

- البشر، لا غيرهم من كائنات الأرض، والأحياء منهم فقط، هم من يقبِّلون، فتنبض صدورهم بالسعادة يغلي الدم البارد في عروقهم، تتقطَّع أنفاسهم في لهاث حارق، وعواطف جيَّاشة ممتعة.

يتعلق بكتفيها

ترتجف فرائصه

بينما تشعر بتراخ لذيذ في أوصالها

وهنٍ داخل جسدها، وهي تعوم وسط بحر من المتعة الفيَّاضة: "**همساته في أذني**

لمساته على شعري

تهدهده بنعومة

وأتنهد: ما أطرى يديك يا سراب

رائحتك في زوايا بدني".

لكنَّها

تغصُّ الآن، لأنَّه ليس معها: "**غيابك يشقلبني شلع قلبي من صدري**".

كانت أيامَ المدرسة تداعب أطياف طفولتها، تحمل داخلها لوحات جمال، وفي يدها قلم مرهف، يخطُّ للأمل القادم رشفات بوح بديع:

"لو أسقط على جناح الحبِّ من نسمة حلم ساحر

ثوب مكشكش أبيض

وقبلة أمير وسيم كالقمر

تعيد الطالبة النائمة إلى الحياة مرَّة أخرى".

لقد اتخذَّت

من الدراسة حصناً يحميها، لكنَّهم ظلموها إذ حمَّلوها في يفاعة الصبا زوجاً، وبيتاً، ثمَّ أولاداً يكبرون مع التعب المضني طوال اليوم:

فسلام عليها عروساً

ترمى بالخيانة في عقر سريرها

سلام حتَّى يتنزَّل الحبُّ على قلبها طبقاً من سرور

يكفكف دمعاً غزيراً

لا يجف..

*

تمسح دمعتها على عجل. نكهةُ الملح الساخن في فمها، مرارة الحزن:

"رجل غفا على حلمي الأخضر

فصحا الورد في فمي".

غيمة عزلاء تعبر الشفق الذاهل، انقطاع الكهرباء يزنِّر المدينة بالسواد، ما عدا مصباح الشارع، فترتسم قضبان نافذتها السوداء ظلالَ قيودٍ شاحبة، تقبع خلفها منزويَّةً في ركن قصيٍّ مهمل:

- والآن كيف أنسى أنَّك تركتني على قارعة الانتظار وحدي: امرأةً من فراغ أيُّها الرجل السراب؟

شعرت بتعب في زنديها، نعست أساورها الذهبية وتماوت لونها البرَّاق. فكتبت على ورقة شاحبة بخطٍّ غامق:

غفرانك

إن جئت تسأل عنِّي فلا ترنُ صوبَ نجمة

انزوت بعيداً في السماء

لا تبحث بين ورود الحدائق

أو وسط غزالات دمشق

ستجدني داخل قلبك

غيري لا يسكنه لأنِّي أحبُّك

سوف تراني في بؤبؤ عينيك

فلا تحدِّق طويلاً في المرآة

وفي صوتك أُغنيك بكلِّ شوق وحنان:

"روحي فيك

مهما جرى

أنا روحي فيك..."

عصفورة تغرِّد، يغار منها البلبل والحسُّون، لذا تشدو حنينها عذوبةً مرهفةً في الكلام.

تشاهد ظلَّها محدوداً، بينما القمر النافق يندب ليل العاشقين:

"عفوك، ظننتك لي وطناً

وأنا المشرَّدة

منذ عصور"..

بدت الغيوم في السماء تسفح حزناً داكناً

فتركت

ركوة قهوتها السوداء

تفور

وتفور...

نكتب
نغني
نرسم
نلحّن لشخص:
شخص واقعي في البداية
ثمَّ يأخذ في التماهي مع المطلق
المطلق شخصي

- **أنسي الحاج**

3 بيلسانات

.. وكنتُ

كلّما جئت إلى بيت خالي في دمشق القديمةِ أتجنب أن يراني، لكنّه يضبطني متسكعاً في حارته

فيطردني:

ــ رايح مشوار ضروري. رأيي ترجع، وتجي بعدين.

غير أنّي، في المرّة الأخيرة، بعدما أخذت طريقي باتجاه بيتنا البعيد في حيّ الميدان، التفتُ إليه، وأنا أمدُّ يدي:

ــ البقيَّة بحياتك يا خالي.

متعمّداً تذكيره بأمّه المتوفّاة مؤخراً أقصد جدّتي، إذ بقيتُ إلى جانبه، يداً بيد، طوال فترة العزاء. ولعله استرجع تعبي المضني خلال تلك الأيام العصيبة، فتراجع عن رأيه:

ــ اسبقني على البيت، لاحقك.

فصرت أدخل بيت خالي- المعروف بأبي البنات- حتى لو لم يكن موجوداً.

**

متوسِّلاً حلمي..

خـلال تلـك الأمـسية الغنائـية، في دار الأوبـرا، حـين جلـست إلى جـوار ضـحى المحمـود، انتـبهتُ إلى شـفتيها القرمزيتين، وهي تستمع بإصغاء إلى المطربة تغني:

" سليمى بلا ذنب جفتني..."*

بدايةً

جذبتني إليها رائحة العطر. كنت كلما استنشقته بطـريقة، لا أعـرف تفـسيراً لهـا: إذ أكـون في أيِّ مكـان وأشمُّه، فأترك الزملاء في الجامعة، أو العملَ في الجريدة، لأحضر مسرعاً إلى بيت خالي، إذا فدوى جاءت لزيارتهم. يستغرب الجميع كيف عرفت، وقد وصلتْ قبل قليل، ولم تخـبر أحـداً بقـدومها. أمَّـا أنـا فأسـترجع لحظـةَ استنشقتُ عطرها ملءَ رئتيَّ، ليستوطن ذاكرتي، كلَّما عاودني وجدتها حاضرة.

وكما لو أنَّها إلى جواري هجستُ:

"فدوى يا امرأة آسرة

ألتقي بك ذاتي

فتتعرَّى نفسي من كآبتها".

---

* القصيدة للشاعر السوري نوفل إلياس غنتها زكية حمدان.

انتبهت ضحى فجأة

وأنا أحدِّق فيها، فقلتُ:

ـ أحسُّ أننا التقينا سابقاً.

ـ لا أعتقد.

أردفتُ، كأنِّي لم أسمع نفيها:

ـ وأكلنا على سفرة طعام واحدة....

تحنُّ يدي لمصافحتها

تفترش طرَّاحة ممدودة على الأرض، كيفما اتفق وقد فردت قدميها الصغيرتين إلى جانبيها، فأكاد أدخل غرفة المعيشة دون إذن، أو دستور. وتسقط الملعقة من يدها مع صوت أمِّها من المطبخ: "أعرفك تحبُّ الفاصوليا مع الرز".

- شكراً، شبعان.

- إذا بدَّك فوت تغدَّ مع فدوى.

أتلعثم بالردِّ

وأنا أسمع اسمها، أرتبك للحظات، فأتأتئ في خبل: "كيف؟ شلون؟"

ثمَّ فتح اللّه عليَّ، فنطقتُ أخيراً: "مثل ما بدك يا مرت خالي"....

في المرَّة الأولى

حين شاهدها بُعيد وفاة جدَّته، بانت ناعمة، عيناها برَّاقتان، ترشحان محبَّة، فخشي إن تحدثت أن يخدش الهواء شفتيها، لذا صار يتلعثم فيتراكم الصمت على لسانه، لا يتحدث إلَّا عندما يحضر ذكرها كأنَّه مفتاح الكلام.

*

- اسمي ضحى المحمود:

شاعرة

روائية

لا أعرف بالضبط.

- تشرفنا.

بعدما

ختمت المطربة وصلتها الغنائيَّة برائعة ليلى مراد" أنا قلبي دليلي..." أخبرتني أنَّها تحتفظ عادة ببطاقات ملوَّنة، وقلم حبر ناشف، كي تكتب ما يرد إلى ذهنها، حتَّى وهي تعدُّ الطعام، أو تكنس البيت، مضيفةً:

ـ أشعر أنَّني دخلت عالماً منفتحاً على المجهول غير عالمي الصغير في بيتي هناك، حيث اعتزلتُ الناسَ داخله منذ سنوات.

بعد ذلك

دعتني إلى بيتها، الذي تؤثِّثه حالياً في حيِّ العباسيين. فما استطعت الرفض.

أتساءل: **"لماذا قبلت دعوتها بسهولة**

على غير عادتي؟....

حينذاك، بعد تعلُّقي بابنة خالي فدوى، رحت أرى صورتي في عينيها، فأحسُّ دبيب الرغبة في دمي، لتحلَّ بي، وأنا الطالب الجامعي، سنة أخيرة حمى الأشواق الملتهبة: علاقات عدَّة، والفكر عندها حسب القول الدارج، فراح قلبي يثور على أيَّة علاقة عاطفيَّة، تمرُّ بي، لتُلفظ زبداً على مياه الإهمال، أو الرفض المهذب. وتيقنت أنَّه الحبُّ:

"فما هو إن لم يكن الانشداد لذكرها بمناسبة

أو دون مناسبة

الرغبة بالجلوس في حضرتها طوال الوقت

أن تطير من الفرح إن هي مبسوطة

وينزل غضب الله عليك لو تزعل

ثمَّ الاشتياق المرير لها بمجرد خروجي من عندها؟"

أضيف داخلي: **"ما هو إن لم يكن تذكُّر أيِّ حركة من حركاتها**

أو همسة من همساتها

والامتلاء إلى درجة الهيام

أو الدوخان اللذيذ كلَّما استنشقت عطرها؟"

*

مع دخولي

إلى بيت ضحى الأنيق المنمنم، حيث كلُّ شيء فيه منسَّق مكانه، ما يوحي بذائقة مرهفة. لكنَّه يخلو ــ عكس بيت خالي ــ من نافورة ماء، وسط بحرة، إلى جوارها شجرة نارنج، مع أصص من الورود المتنوِّعة: جوري، قرنفل، وحبق

يطالعني صوتها كأغرودة: "هلا بالورد

أهلا وسهلا".

تسمرت

في الكاريدور الضيِّق، وأنا أتملَّى وجهها، يشعُّ أنوثة متوحِّشة، رصدت حالة فدوى، تخيَّلتها: ملابس بسيطة، وجه بلا مكياج، صوت مثل الشدو، مع نبرة هادئة، وشفتين قرمزيتين لا أحلى....

أجلس على الطرَّاحة قبالتها.

ما إن انتهيت من أكل الأرز مع الفاصولياء، حتَّى رحت أتلمَّظ شفتيَّ. ثمَّ أمسحهما بلساني، وأنا أحدِّق إلى شفتيها باشتهاء، مردِّداً:

ـ ما أطيبهما! ما ألذَّهما!

فحدجتني بنظرة قاسية مستنكرة ما تراه، لذا أوضحت باسماً:

ـ قصدي الفاصوليا والرز يا بنت خالي!

دخلت ضحى، تغيّر بملابس خروجها ثياب بيت، لم تختلف كثيراً، فنزلت عن الصوفاية، أفترش الطرَّاحة الممدودة كيفما اتفق، وجلستْ قبالتي تحكي كأنَّها شهرزاد:

"دائماً يوجد في المطبخ طناجر وصحون، فناجين وكاسات، سكاكين وملاعق، بحاجة إلى جلي، طعام ليُطهى، مائدة تنتظر التجهيز، بيت يترقب من يكنسه يمسحه، ثياب كي تُغسل، وتكوى...

بينما أتخيَّلني: هنا ديوان شعر، هناك رواية، إلى جوار مجموعة قصص، على الطاولة كتاب نقدي، من حوله أصص ورد جوري، وحبق، فمتى يصدر حكم الإفراج عن روحي الأسيرة؟"

- أجد نفسي قاصَّاً، مع ذلك لم اتخذ الكتابة مهنة تماشياً مع وصيَّة شاعر كبير: "خلِّ الكتابة هوايَّة، واكسب رزقك من عمل آخر".

تصمت لبعض الوقت، ثمَّ تتابع وجعها في عصبيّة:

- عيش جعلني ذاهلة طوال الوقت، وروحي إلى يباب سحيق.

بدت

تتحدَّث في معاناة مؤلمة، تعرب عن رغبتها دخول اتحاد الكتَّاب، مع أنَّها تملك تناقضها الأثير:

اعتزاز بالنفس إلى درجة الغرور، والتواضع أمام تجربتها القصيرة في كتابة القصَّة، بينما صدى ضحكاتها يشيع البهجة بين الفينة والأخرى.

فنصحتها:

ـ في قصَّتك اكشفي أوراقك بجرأة. فالكتابة تتيح أن نعي ما عشناه في الماضي، لتحرِّرنا من فخِّ الوقوع في الندم. وليسكنك شغف اللعب مع الكلمات، فالقصَّة

كالمتاهة، لذَّتها المغامرة. تابعتُ، وهي صامتة، تستحثني أن أستفيض:

ـــ في الكتابة تحكمين القبض على تجربتك الحياتيَّة تستخلصين العبرة منها، ولا تدعينها تضيع في النسيان، مهمٌّ أن تتلبسك شهوة القصِّ، لتنقاد الدهشة إلى قصَّتك، مثل أنثى تكشف مواطن جمالها.

ثمَّ همستُ:

"النساء مدن متنوِّعة

وعالم المرأة مثير: إنَّها جوهرة العالم

وأطيب حكاياتها ما يتنفس به الجسد".

تأمَّلتني

في تمعُّن حالم، ثمَّ هزَّت رأسها مرَّات:" معقول!"

- الإبداع الحقيقيُّ يبقى، لينفذ إلى الروح بانسيابيَّة، يترقرق في النفس كماء زلال، ينقيِّها من أدرانها، فتسمو عالياً بينما غيره يهوي هباء منثوراً، إذاً مدِّي كلماتك من معين عاطفة لا تنضب: يا طيب عشق تبتدعه القاصَّات!

بعد ذلك

أهدتني ديوانها البكر، على غلافه الأول صورتها....

ما لفت نظري في قصر بيت خالي ـ هكذا تسمِّي بناتُه غرفةَ الضيوف ـ وجود صورة لفدوى داخل فاترينة الزجاج الفخمة، ما إن شاهدتُها حتَّى دعوت أختها الكبرى ـ كانت فاتن تحبُّني، لكنَّه قلبي، وما يهوى ـ طلبت منها أن أستعير هذه الصورة ليوم واحد. استغربتْ، ثمَّ ماطلتْ طويلاً، قبل أن أدغدغ مشاعرها:

- ولو حبيبتي فاتن، مشَّاني.

مباشرةً

توجهتُ إلى الاستديو الذي تصورتْ عنده فدوى. لكن لم أستطع الحصول على صورة منسوخة إلَّا بعد جدال صعب، مع دفع ثلاثة أضعاف المبلغ المطلوب.

يومذاك لم أعرف كيف فاح عطرها المميَّز واكتست جدران غرفتي البائسة بورود من كلِّ الأنواع وأنا أغرس صورتها في أصيص الجدار القبلي!

انذهلتُ

من أين جاءت عصافير الدوري، تزقزق على شباكي المخلوع؟ كيف تحولت الأوراق فوق طاولتي إلى فراشات مزركشة؟ وتصاعدت أغاني الفرح لأخاطبها في أمل:

"فدوى يا عذب حروف
تنساب في حنايا الروح
لو أسند رأسي إلى حضنك
تهدهديني مثل طفل صغير
ليعمَّ السرور العالم!"

أزعم

أنَّه لا داعي لعرض مأساة أسرتي المتنافرة وشجارات أبي وأمِّي تلك الأيامَ، لدرجة أنَّ خالي طلب منها القدوم للعيش مع بناته، على أن تتركنا، نحن الأبناءَ، في حضانة أبي، وهذا ما تسبَّب في رسوبي سنوات.

*

فجأة

أنزلت ضحى العود المعلَّق على جدار غرفة الجلوس، لتعزف برهافة، فاسترجعتُ ذلك المساء حين قرر خالي كسر حالة الحزن على وفاة جدَّتي، بعد حضور مستأجر، من قرية على نهر العاصي، تخرَّج حديثاً من قسم اللغة الإنكليزيَّة، وجاء يؤدي خدمته العسكريَّة في مدينة دمشق.

لاحظت امرأة خالي اهتمامه بابنتها الكبرى فأوعزت بإقامة حفل للتعارف، لذا أحضر خالي عوده المحلى بالخزف الملوَّن، راح يحنو عليه، ويلاطفه مثل ابنه المحروم منه منتشيّاً، كأنَّه يدخل في ملكوت طرب، تسمو به الروح، وأخذت صغرى بناته ترقص على وقع عزف بديع.

جرَّب

المستأجر الجديد صوته، ظهر غليظاً في نشاز فأرادت فاتن حرقصته، أقصد إثارة غيرته

طالبة مني أن أغني، غنيت لفريد الأطرش

الذي يحبُّه خالي كثيراً: "أحبابنا يا عين ما هم معانا..."

في اليوم التالي

سألتني فدوى التي بقيتُ أنظر إلى شفتيها القرمزيتين، ترسمان فماً نديَّاً، وأتلمَّظ طوال السهرة دون أن تمنحني التفاتة واحدة:

ـ صحيح أحبابك ما كانوا معك؟

فتيقَّنت أنَّها تحسُّ بما أكنُّه لها. ومثل طائر يستفيق على الحبِّ بغتة، ليس بمعنى أن يحِبَّ، بل أن يُحَبّ أيضاً، وجدت تخوم المدى لا تسع فرحتي.

كم استعذبت اسمي، واكتشفت لذاذة النطق به ممطوطاً في دلع. تقول لي: "..... أحبُّ منشفتك المعلَّقة عند المغسلة، وحبل غسيلك القصير" فأحمل وردة جوريَّة حمراء، أتعمَّد تقديمها عبر نافذتها العاليَّة، أبدو متسوِّل حبٍّ على شبَّاكها، وعزَّ عليَّ النوم حينذاك.

أحدس داخلي الآن: "**ما أشبه الأمس باليوم: حبٌّ عصيٌّ على النسيان يولد.. مثل ليل غيّب مصباحه الظلام**"....

مع حبٍّ فدوى

المشرع على النور الصافي، تسارعت الأحداث مرَّ الوقت سريعاً: استأجرتُ غرفة في دمشق القديمة وصرت لا أبرح بيت خالي حتَّى آناء الليل

أُدرِّس فدوى منهاج العربية للثالث الثانوي:

يغفو خالي، ثمَّ يصحو مراراً، وهو يدخن النرجيلة

بينما تصبُّ زوجته المتَّةَ، يبرد ماؤها، تسخِّنها مرَّات عدَّة، مصراً - من ناحيتي - على نقل الجوزة المخرَّمة من فم فدوى إليَّ مباشرة دون أن تُغسل المصَّاصة، فأحسُّ شهد العسل على لساني، وأروح أمصمص شفتيَّ بانتشاء دون أن تزعل.

أخيراً

تحت ستار الليل الحارس، تتبادل شفاهنا، دون حاجة للكلام، أمنية النوم الهانئ، والإصباح على خير.

لكنَّ أختها الكبرى

قامت بتوريطها مع جارهم خرِّيج الأدب الإنكليزي، كي يخلو لها الجوُّ، فأتقدَّم لخطبتها بعد أن تتزوجه فدوى.

هذا السرُّ كشفته لي رسالتها التي تضمنت اعتذارها الأخير: "أتمنى لو عشت من أجلك عمري. لكنك ستلتقي بالتأكيد من هي أجمل منِّي، ولها شفتان قرمزيتان".

بعد فراقها المرير

حلَّت أعوام قحط، لم ينبت فيها زرع، وجفَّ الضرع، كأنَّها كانت تمسك بمواسم الخير بين أناملها المندَّاة بالحنَّاء:

عبثاً تمضي الحياة بعد غيابك المرير

تحاربني ذاتي

أوردتي في صفِّك وأنا وحيد..

ورأيتني

حولي أصص ورد أسود، تمسِّد على شعري حتَّى إذا ما وضعت رأسها على صدري جهةَ القلب

لم تجد نبضاً، فانتفضت مرعوباً وسط كابوس يتكرر كلَّ ليلة، بينما يعاودني الحنين إلى أسرتي مبلَّلاً بالألم والمرارة: أمي تتحدث همساً مع روحها طوال الوقت، ثمَّ تكرج بعض الدعوات ضد والدي، لأتدثَّر بدموع ذاهلة.

واستغربتُ

أن تفعل فتاة مثلها: مرهفة الأحاسيس، ما فعلته بنفسها، إذ خاضت في نهر العاصي بعدما ملأت جيوب ثوبها الأسود بالحجارة الثقيلة، لتستقر في أعماقه بعدما هجرها زوجها، الذي اعترفت له بكلِّ شيء

لذلك فرضتُ على نفسي أن أختلي في غرفتي، لا أبرحها إلَّا للعمل في الجريدة، أو حضور مقررات السنة الأخيرة، الهامَّةِ فقط:

فدوى

بهجة الحياة موحشة من دونك

تحت هجير شمس لا ترحم

ويسقط اسمي حروفاً ذابلة:

ألف تبكي

ياء مقطَّعة الجنحين

ميم تهوي بانكسار

نون تلمُّ نقطة الحزن الشفيف..

وزهدت بالحياة

فأصبحت أعاف الاختلاط بأيِّ فتاة، إلى أن التقيت ضحى المحمود، في تلك الأمسية الغنائية.

بدت لي امرأة رؤوماً، تحتضن قلبي المتعب، كأنَّها تقودني إلى رحم، افتقدته سنواتٍ من الحرمان، وهي تصافحني:

ـ يداك باردتان، تعال تدفئك حرارة قلبي.

ثمَّ تلفُّ اللحشة حول رقبتي خوف البرد: أرادت اختصار الوقت البارد قبلة حبٍّ ساخنة، ملؤها اللهفة والحنان، فتساءلت داخلي:

"ما القبلة

إن لم تكن تصادم سحابتين بشرارتين

فيهطل مطر ناعم

له طعم العسل المذاب ومذاق النار؟"

نسير معاً في حارات دمشق القديمة، كأنَّنا لعبنا وسطها: "**هل حدث لقاؤنا في حياة سابقة؟**" أصغي إليها في حبور:

- المرأة مستقبل الرجل، لأنَّها لون روحه، كما يؤكد، مجنون إلزا، الشاعر الفرنسيُّ أراغون.

وجع مخبأ في السؤال:

- لماذا لم نلتقِ في مرحلة الطفولة هنا؟

بعد أن نصل إلى بيتها أستأذنها لأمضي دون أن أصافحها، أو أنظر في عينيها البراقتين، تعاتبني:

- ذهبت حتَّى دون أن تسلِّم علي!

أبتسم في مرارة:

"كيف أقول لها أخشى أن تريني أبكي لفراقك عيناي طافحتان بالدموع!"

معها

استعدت إحساسي بالحياة: "**تستحق أن تعاش الآن**"....

نجتمع في أمسية أدبيَّة، فأستمتع بمماحكاتها الحاذقة، تلقي كلامها الصداميَّ ذاتَ اليمين، وذاتَ الشمال، في شغب محبَّب.

بعد ذلك، تستريح يدها الرخيَّة بين يديَّ متوادعَين يصيبني خفوت حزين: "**لعلَّها محاولة قلب مقاومةَ تصحُّره**

بأن يحبَّ في تفانٍ

حتَّى لو كان حبَّاً بلا أمل".

عيناها تبرقان بالفرح عندما أشاطرها الحلم بمجموعة جديدة، وخلال سفرها إلى مدينة حمص أقلِّب جمرات قلبي بيديَّ، ومن داخل دموعي أستعطفها أن تعود بسلام.

رحنا - بعد مجيء زوجها لاصطحابها إلى الأرجنتين حيث يعيشان - نتحادث على الهاتف لساعات، وأنا أحلِّل موقفي منها: "**لا ليس حبَّاً**

بل حاجتك أن تتحدَّث إلى امرأة

تحسُّها رغم المسافة بينكما قريبةً إذ تقول لك:

- أنت أنا.

لا تتحدث

إلَّا بعد سماع رنَّتها الأثيرة خشيةَ تزعجها

أو تقلق قيلولتها

لكن عندما تتهاتفان كما تحكي مع ذاتك

لا تشبع كلاماً مباحاً أو غير مباح

فـإن أطلـت كـثيراً وأردت قطـع المخابـرة محـرجاً واصلت هي لا تريدك أن تتوقف أبداً

أمَّا باقيَ الوقت

فيكفـيك حـضورها داخلـك كأنَّكمـا مازلـتما تتناجيان

إذ تغـضب لـو علمـتَ أنَّ أحـداً مـا خـدش شـعرة مـن مشاعرها

وتفرح إن فازت بجائزة كأنَّك رابحها:

ما أنت أيُّها الحبُّ إذاً؟"

حدَّثتني مطوَّلاً

عـن معاناتهـا الأسـريَّة، بـدت جـريئة، لم تتنكَّـر لمغامـرات ماضية، ترك بعضها جروحاً، لم تندمل. لاحظتُ احمرار خديها، عرفت أنَّها ستخبرني أشياء خاصة:

ـ زوج، لا يفطن أنِّي زوجته إلَّا ليلةَ الخميس

متى يعفيني من مَهمَّة، أنفذها دون روح؟

أناجـيها سـرَّاً في خلوتـي: "**لوقـع خطـاك انـتظم نـبض القلب أشرقت شمس نهار بعد ليل طال**

لكنَّ طفولة وجهك

عطرك الأخاذ

شفتيك القرمزيتين

توقظ أيامي في دمشق القديمة"....

راحت فدوى في الأيام الأخيرة تكوي ثيابي، ثمَّ تعطِّرها من عطرها الخاصِّ" توليب" فأحسُّ أنَّها تمشي معي أينما اتجهت، وكيفما سرت.

أتذكَّرها

تستقبلني بوجه لوَّحته شمس العاصي الحارقة، ترفع رأسي إليها، وتبتسم في ألق، كأنَّها تفصّل أيامي على مقياس حبِّها، فأحدس داخلي: **"ما زالت ذكراك تمدُّني بالإلهام**

كأنَّ غيابك أقوى من حضورك حبيبتي".

كم

حلمتُ بها ضحكةً تضيء طريقي وسط أيامي المتجهِّمة داخل أسرتي، إذ تركت أمي إخوتي الصغار في حضانة أبي، وجاءت تعيش في بيت خالي، معتادةً أن تلقي همومها على مسامعي بلا ملل.

والآنَ: ماذا بعدُ؟ تُراني أمسيت العاشق الأسير لعطرها؟ إذ لطالما عبق المكان به، حين تخطر على بالي؟ كأنَّها أصبحت دمشقَنا القديمةَ، بحاراتها الضيِّقة أبنيتِها الطينيَّة، أسواقِها الشعبيَّة، وناسِها الطيبين:

"لم تعد بيتي الثاني فحسب
بل موطئ القلب مأوى الروح
ومستقر النفس العليلة".

أتساءل: "أ يبقى الحبُّ غير المكتمل جمرة تحت الرماد، حتَّى ينقله وجد الحبر إلى صفحات
تزهر بالألم؟"

أجزم: لم يكن تشابهاً مع ابنة خالي، بل تعداه إلى ما هو أعمق، وهذا اللقاء بيننا مكتوب على اللوح المحفوظ منذ الأزل: **"هل يبدو لكم واضحاً اسم ضحى المحمود على جبيني؟"**

*

على حين غرَّة
يرتفع صوت المكبِّر في قاعة المسافرين بمطار دمشق
يدعوهم أن يتوجهوا نحو الطائرة
التي ستقلع إلى الأرجنتين.

تبدو [...] يابس وجهها، واهنة الخطو، كأنَّ جبلاً على كتفَيها. وقبل أن تدير ظهرها تقبِّلني مع عضَّة [.....] تدمي شفتي السفلى:

- لا تحزن حبيبي، سأتَّصل بك.

ثمَّ تمضي خلف زوجها

أخذت معها قارورة، ملأتها تراباً من حوض شجرة النارنج، بالقرب من بحرة الماء، في بيت خالي بعدما حكيت لها عن [....] حبيبتي.

لم أجهِّز حقيبة دموعي

فانهمرت السماء باكية:

"يا لسفر بعيد

جعل روحي تنزف دماً

فاحمرَّ لون الشفق".

لذا رحت أنشج داخلي:

يا أنا مدى الوقتِ / أسرج للحبِّ وقتي

أحمل وحشة البيلسان مدى الدهر

فهل من مرافئ أخرى أيُّها القلب الحزين؟

راحا ينظران حولهما في ذهول، ثمَّ انكسرا معاً مثل لقى تناثرت أشلاء

وضاع بعضها

اعتراه

وهن في ركبتيه
تعب مضن هدها
فتهالكت
على مقعدها داخل الطائرة
ممتقعة [.....] في صفرة كابيَّة.

فجأة
جفَّ الكلام على لسانه
نظر إلى المطار
إذا هو قبر
ثمَّ غلبته دموع حرَّى
إذ لم يعد يشمُّ عطر ضحى المحمود
حلَّق قلبه في الجوِّ مع طائرتها
وقلبُها
بقي
جاثماً
على أرض المطار..

ii منازل الشفق

(في عشق سورية)

منزل 1.. ... نصفه الأبيض
منزل 2.. . ..أنشوطة الصمت

(عشبة على حجر)

منزل 3.....النير
منزل 4 .... في انتظار.. أيام سعيدة

(زمن الضيق)

"هي الحضور الأمثل لأمرِ الله:
كوني وطناً حاضراً في النبض
قمراً يطلّ على قلب العالم

يا المزدانة بالألقّ: مملكة من أهازيج
ونهنهات وجع
حقولاً من ياسمين
وشقائق نعمان
لأنك الأبد المتوّج بزمان لم يألفه الغزاة
تنهضين غداً يحملك الحلم إلى مستقبل أبهى
تبقين في قلبي ابتسامة حبٍّ اسمها سوريّة
فيض ندى الصباح
وأيقونة الفرح..

نصفه الأبيض

"الطريق السريعة توصلنا.. لكنها لا تكسبنا خبرة السير بثقة..."

- كأنَّه غاب توّاً..

يلهث خلف فراشته، يصعد عاليّاً حبال النور يفرش وجده على طبق من إصرار

أن يُثبِّت الأرض من قرنيها فلا تنهار

وتسقط وردة القلب

في حضن التراب..

عندما صادفته في هذا المقهى الشعبي – هنا يجلس عمال، وفلاحون، باعة متجوِّلون، أدباء، وبعض الطلبة

- عرفت أنَّه استغنى عن حرَّاسه الكثيرين، وما عادت السيارة السوداء الفارهة تتبعه، مثل ظلِّه
كي تنقله إلى حيث يشاء.
ظهر
معتدًّا بنفسه
له طريقته حين يتكلم، فتلتمع عيناه حماسةً
كأنَّ حرائق في داخله
يفرغها على الورق بوحاً خالصاً من دون رتوش:
أحزنني النشيد
رجع صمت بعيد
متأبِّطاً جرحي / كلما قلت يبرأ غداً
نزفت من جديد..
عبرنا سوق الحميدية
اتجهنا صوب البزورية
طالعتنا رائحة توابل واخزة. ثمَّ شربنا الشاي في مقهى النوفرة. وخضنا في حارات دمشق القديمة: **"مدينة تعلِّمك ألا تسافر بعيداً عنها**
مهما نأيت بين البلدان".

لم يبقَ في دائرة تخصُّصه العلمي: هندسةِ الالكترون، بل سرعان ما رجحت كفَّة الشعر، الذي تولَّع به منذ طفولته، ويعدُّه الآن بيته الأخير: "إنَّه وثيقة

وجودنا على هذه الأرض، به نوسِّع نفوسنا، لتصبح ملء العالم، ويصبح قابلاً لنضمَّه داخلنا مفعمين بالحياة".

فجأة انبثقت قطرة دم من معصمه الأيسر فاستخدمها حبراً، وراح يخطُّ كلماته الجريئة:

يا حريَّة
كرمى لعينيك هذا الصخبُ في دمي
كلُّ هذا اللهبْ.
ما تغمض عباءةُ الليل عينيَّ
ولا رميةُ القاتل بابَ الفجر
وإن زاد التعبْ..

لم أبحث عنه طويلاً. تقابلنا دون موعد مسبق، كأنِّي كنت أنتظره غيمةَ حبلى بالمطر:

يطول الترقُّب حيناً
لكن لن نخذل من ينتظرنا
لا يخلف الصبح موعده يا أصدقاء..

- هل تأخرتُ؟
- قليلاً.

وعدني أن يسرع للقائي في المرَّة القادمة، ثمَّ ملأ رئتيه من هواء دمشق العليل. بدا الصمت مشوباً بالحذر:

"نحيك قماشة الوقت بأعصابنا
نلملم وحشة العمر أملاً يجتاحنا

لنبدأ بالتفكير: هل نستطيع القفز في الخواء؟"

التفتَ نحوي، مشيراً إلى جبل قاسيون:

- ذلك المكان يناسبك.

- ماذا تقصد؟

ـ لمن يبحث مثلك عن فضاء يحلِّق فيه.

أطلقتُ آهةً طويلة، ولم أكن أعرف أنَّه يريد اختبار تجربته الأخيرة، فاستفسرتُ في وجل:

- كيف؟

قال:

- اتبعني.

منذ تلك المصادفة صرت أناديه: "يا صاحبي".

يمسِّد الشفقَ الذاهل عن عينيه

تحضر دمشق كرحم، تحتضن شوارعها الضيِّقة شخصين، يتبادلان الهموم معها، وما يعانيه كلاهما من أوجاع المخاض.

*

استفسرتُ عن ماضيه عرفت أنَّه قسَّم نفسه نصفين، كي يكسب حياته، فلا يستضيفونه لديهم بضعةَ أشهر، وربَّما سنوات....

توقَّع أن يستطيع، مثلَ أيِّ ساحر حاذق، إعادة اللحمة لنصفيه بعد أن يصفِّق له الجمهور. لكنَّه فشل فراح

يمشي خطوة بنصفه الأيسر، يرجعها بنصفه الأيمن.

حينذاك تصدَّر في مقهى راقٍ وسط المدينة حيث أجهزة التكييف: لوحات زينة تغطِّي الجدران

عيون نائصة يؤلمها الضوء

لأنَّ الحقيقة ساطعة

مع ديكورات باذخة فارغة من الروح

حتَّى النادل هناك ملابسه نظيفة مكويَّة بعناية يحدِّثك بأسلوب منمَّق ولا يقبل بقشيشاً صغيراً..

كان صاحبي يرتفع في مرتبته، لكنَّه يسقط من نظر أصدقائه المقرَّبين:

- ما عاد يستمع إلى أغنيات نجاة الصغيرة، ولا تشجيه، كسابق عهده، أناشيد عبد الحليم حافظ.

- لم تعد تحرِّك أحاسيسه زهرة يانعة، تشقُّ طريقها حيث يلتقي جدار ببلاط الرصيف.

مع أنَّه بقي ذا طقس خاص، تنتابه انفعالات طاغية، خبيثاً بعض الشيء، لا سيَّما إذا حصرته في زاويَّة اليَك، كما يسمِّيها رواد المقاهي. وإذ ينظر في المرآة إلى وجهه يشاهد شبحاً يضحك منه، فيؤنبه في صرامة:

- اخجل من نفسك.

يردُّ عليه:

- أنت السبب.

ويردف في شجن عميق:

"كم وددتُ لو أحبُّك نعيش مودَّةً مدى العمر".

عندما

تمعَّن جيداً في الصورة أمامه عرف نصفه المقموع.

منذ ذلك اليوم ما فتئ يستيقظ على كابوس فظيع يرى نفسه يسقط من علٍ دون أن يكون حصاناً بجناحين، أو راكباً بساط الريح.

على حين يقظة، تنجلي ملامحه غمامة

ترسم قوس مطر

تلقي عليه الشجرات سلامها

يمشي إليه النهر

ينهض قلبي من كبوته تفاحةً للأرض

كي تعلن الأغنيات حلو الكلام..

سألته عن موضوع ديوانه القادم قال: سوريَّة.

ثمَّ أردف: "هيهات أن نرتوي منها: إنَّها أمِّي والعروبة موطني".

*

سماء

تملؤها سحابات مخضَّبة بلون الشروق المرتجى وصاحبي يعشق شفق المدينة، لأنَّه يمنح النفس هدنة مع الآلام.

من جديد عاد يحثُّني:

- هيا بنا، اتبعني.

فتبعته، وظلَّ يمشي دون أن يعبأ بشرطي مدجَّج بالسلاح، يرفع في وجهه شارةً حمراءَ، كلما أراد العبور إلى الضفَّة الأخرى.

أخيراً التفت نحوي في ألق:

ـ هل تطير؟

وانطلق حاملاً صمته المضني على كتفيه، متَّخذاً طريقاً إلى مساء منار بالألم، راح يجري بين بسطات الدخان المهرَّب، الخرداوات، أكشاك بيع الميلو والزهورات، فارداً ذراعيه، يضرب بهما الهواءَ الخانقَ من حوله.

فجأة لم أعد أراه، كأنَّما ضاع وسط الزحام، لذلك أنشدُهُ:

لصاحبي أكتب هذا الصباح
لروحه الأسيرةِ
قلبهِ مضاء بالرؤى اليانعة
لعينيه يطير منهما حمام زاجل
على اسمه نوزِّع موائد الحبق
فيتَّسع الوطن شقائق نعمان..

*

في اليوم التالي
بعدما التأمت الفوانيس هازمةً فلول الظلام
تبدى
صاحبي بساقيه الشبيهتين بساقي غزال وذراعيه الجناحين
وسطَ بركةِ دم.
كان
لون دمه أحمرَ قانياً
كأن شعاعاً من النور يمرُّ عبره
وثمَّة مجموعة أوراق متساقطة حول شجرة قريبة
راحت تنوح بأغنية
لا يملُّ الناسُ
سماعَها
كلَّ حين..

أنشوطة الصمت

(عشبة على حجر)

"الشمس تشرق كلَّ صباح
فلماذا الحزن الذي يأتي مع الليل؟"

ظلال سوداء تقترب..

عندما

شاهد الزوارَ يتجمهرون على شبك الساحة الخارجي تذكَّر أنَّه هنا منذ بضعة أعوام: وقت مستقطع من ليل طويل، يستعين عليه بأحلام يقظة عابرة، وهو يسأل نفسه:

"هل أنا في اليوم الأول

والنمور في العاشر؟"

على ذلك الشبك عروق أيدٍ نافرة، كأنَّها تحاول تسلُّقه، أناس مجهولون غرباء، لكنَّهم أسرة واحدة، قلوبهم متلهفة للقاءٍ لا تحوطه القضبان، وخلفه وجوه يابسة ـ بعضها يوشك على الانهيار ـ حفرت الأيام القاسية عليها أخاديد عميقة.

رائحة واخزة لرطوبة وعفن عتيقين

نوَّاصة مشعولة على مدار الساعة، فلا يُعرَف ليل من نهار، ثقل زمن يمضي بطيئاً كالسلحفاة: جدران قذرة، عليها كتابات بذيئة، وبعض رسوم فاحشة

حصيرة على الأرض

بطانيَّتان، بابُ فولاذ مغلقٌ طوال الوقت، في أسفله كوَّة صغيرة لإدخال قصعة طعام، وكيلة ماء. يُفتح الباب فقط عندما تُطلب للتحقيق، لحظتئذ تَسمع ضجة صوت المفتاح الضخم، يولجه الحارس في قفل حديدي ثقيل.

*

في عزلته الخانقة

داخل هذه الزنزانة صار يتمنى جولة تعذيب تؤنس

وحشته: "ليت الحارس يأتي، كما في السابق يجأرني:

- بلا صوت يا كر..

ثمَّ يلعلع صوته:

- اخرس ولاه جحش..

حتَّى لو يهزأ مني مثل عادته:

- صحيح إنتَ زلمة؟ وأستاذ كمان؟

لابتسمتُ له. فالمطلوب أن ينتهي هذا الصمت القاتل من حولي، ويوقظني صوت إنسان".

كان

يحلو له ملاحظة علامات الخيبة على وجه سجَّانه، الذي يروح يضربه، وهو صامد دون أن يدرك السرَّ في ذلك....

من خلال الأدبيات الحزبيَّة

قرأ الكثير عن طرق المقاومة داخل السجن، فوجد أكثرها فعَّالية أن تعيش، وأنت تتعرض للتعذيب، لحظةَ الانتصار مع إشراقة الغد المنشود: لقد سرى تداول السلطة

تعددتِ الأحزاب ـ حزبه في الطليعة طبعاً ـ

ساد القانون

أمامه المواطنون كأسنان المشط

تمَّ فصل السلطات: الدين للّه والوطن للجميع صحف متنوعة المشارب

مفتوحة لمن يشاء

فلا أحد يمنعك أن تقول رأيَّك...

ذات

عتم

أطبق

الصمت

مداهمة ليليَّة أودت بي، فلا أستطيع نفي التهمة، فيما أنا أتحدَّث بالسياسة في المنتديات، واللقاءات السرِّية، واجتماعاتي مع الرفاق، زدتُ عليها لاحقاً المقاهي العامَّةَ، ودورَ السينما، موقداً بالكلمة شموع التفاؤل وسط أفق من الظلام الدامس.

باختصار

منذ سنوات كثيرة ـ لا أعرف عددها ـ رُميت مثل حجر في بئر عميقة بعدما كنت بلبلاً يغرِّد على مدار الأمل: **"هل يُسجَن البلبل إذا غنى**

أطربك صوته

أم لم يُطربك يا صديق؟"

والآن

ما أصعب أن تقبع داخل غرفة ضيِّقة دون أي حضور بشري، إذ باتوا في الفترة الأخيرة، يرمون لي قصعة الطعام الهزيلة + نصف كيلة ماء من كوَّة الباب، وأنا نائم، فلا أحسُّ بمجيء حارسي الذي أحاول استعادة صورة وجهه فلا أقدر، لذلك أفكِّر بالانتحار صباح غد بعدما عثرت على سكين مشحوذة جيداً.

هأنذا أنام مطمئناً أحدس داخلي:

"لن يبتلعني العفن وحيداً

دون أن يدري بي أحد

والصباح رباح".

بيد أنِّي استيقظت منتصفَ الليل خائفاً، أرتجف: ربع غمغمة، جفلتُ في نصف إغماضة، ثمَّ أصختُ السمع. فثمَّةَ من يدقُّ على الجدار.

سلسلة ضربات متسارعة تعبِّر عن وحشة وفراغ قاتلين، قابلتُها بضربات مماثلة في بهجة التواصل المقطوع منذ زمن: **"لا بدَّ أنَّه سجين.. تمزِّقه وحدته القاتلة.. يريد أن**

يكلّمني" فأستمع إليه من خلال شقٍّ في الجدار المشترك:

ـ أنا جارك سيف الجدري.

ـ اسمي بشير رضوان.

يبتلعني الضوء القادم من الممرِّ، بينما الحارس يسلّط بيله اليدويَّ على وجهي، من خلال الكوَّة أسفل الباب الفولاذي الثقيل. نلتزم الصمت معاً. ثمَّ تغمرني طمأنينة مفاجئة، فلن أتفسخ في هذه الانفراديَّة الملعونة:

"لم تعد كذلك

بل أصبحت مهجعاً

وربَّما قاووشاً بكامله!"

ـ كلُّ قاووش[1] مهجع، لكنَّ العكسَ ليس صحيحاً يا أصدقاء.

سابقاً في المهجع الأول جعلت لنفسي مكتبةً خبأتُها تحت سريري: **"هناك الكثير مما تجدر قراءته**

فلكلٍّ فكر طعم مختلف

وكلَّما زادت حديقة الأفكار تنوعاً بانت ثمارها أشهى

---

[1] القاووش: عدد نزلائه أكثر من خمسين، وإلا فهو مهجع..

ثمَّة كتب ممنوعة تفوح منها رائحة النهار

حوار على حافَّة الفجر حتَّى بزوغ الشمس".

على الجدار الشرقيِّ، مجموعة خطوط اجترحتها الأظافر، تروي مذكرات خاصَّة مع بعض الشعر ومقطعاً منتقى من الإخوة كارامازوف" يولد نهار من الرؤيا، يخرج الموتى والمسجونون من الأعماق السحيقة، يتخلص المحكومون من آلامهم المبرِّحة يهرعون زرافات من الزنزانات والمواخير، وهم يسمعون صليل أصفادهم. إنَّهم جميعاً عبيد الشهوات والأهواء، أيديهم ما زالت ملطَّخة بالدماء، وظهورهم مثخنة بالجراح النازفة، غير أنَّ الشكوى لا تلبث أن تنطفئ في أفواههم، ويتلألأ الرجاء في عيونهم.

يُبعث ديمتري كارامازوف المحكوم البريء

وهو يصرخ بغبطة:

- سأنتصر على جميع آلامي، فأنا أرى الشمس. وإذا لم أتمكن من رؤيتها فإنِّي أعلم، على الأقلِّ، أنَّها موجودة.

يقترب منه أخوه إيفان معلناً:

ـ إنَّ الشرَّ الوحيد الذي لا يمكن تعويضه هو الموت".

لقد أصبح

منـتدى الأحـرار- هكـذا سمَّيـنا مهجعـنا ــ سـاحةً مشرعةً للقاء مختلف اتجاهات الفكر والسياسة بترحاب:

"نعم في البدء الكلمة

فلا بدَّ من قراءة متفحِّصة

يتمخَّض عنها برنامج نضالي

يعتمد معطيات الواقع السوري

نلتقي عليه

كي نمخر معاً عباب البحر الهائج

وصولاً إلى أرض أحلامنا..."

أيامذاك

أخذنا نتحاور بشفافيَّة لدرجة أنَّ بعضنا صدَّق الزعم الرائج بين الناس: "يحصل المرء على أكبر قدر من الحريَّة في السجن!"

ثار جدل مفاده: "الاختلاف سمة الحياة، والانفتاح على الآخر حالة تحضُّر بامتياز".

فيا رفاق السجن: بكم تشمخ قامتي أينما كنتم، لنبل أرواحكم ألف تحيَّة إكبار.

وأنتم أيُّها الراقدون في ثرى بلادي:

"سلاماً ما أصعب غصَّة الغياب في حلوقنا نصافحهم للمرَّة الأخيرة

لا نقول: إلى لقاء بل وداع".

أتلفت حواليَّ

ثمَّ أهذي:

من هنا مرُّوا

كلماتهم تسكن حنجرتي

فامنحني أيُّها الوقت بعضَ الوقت

لأروِّض الخيل في دمي..

ورحنا، أنا وسيف، نكتشف بعضنا: أخبرني أنَّه سمين وقصير.

- طولي 189 سم.

- لحيتي كثَّة، شعري أسود مكزبر.

- أما أنا فحليق بلا لحية، لكنَّ ذقني طويلة الآن.

حين سألته عن أهله سكت، كما لو أنَّه نسي الكلام. فتأكدت أنَّ العالم كلَّه - الزوجةَ، الأولاد، الأمَّ والأبَّ الإخوةَ، حتَّى الأصدقاء - ينتهي هنا، لتبقى الذات والآخر، أقصد الحارس، أو السجَّان فقط.

مأخوذاً

بلعبتنا الثنائيَّة خرجتُ من فخِّ السجن إلى فضاء جمعي، فحدَّثت سيفاً عن حبيبتي: جذبتني فارتعشت روحي بسرٍّ غامض، وانسحت مدى الشوق العارم:

"ما أحلى حبَّك كالبحر

يحتضنني في حنان

ولا يغرقني

أمنحه سند الملكيَّة لقلبي فيزعل

أبقى ضيفاً خفيف الظلِّ أو أرحل".

- تلك الأيام، تابعتِ السير إلى طموحها، تدرس وتدرِّس، حالمة بعالم يُعلي أنوثتها، يقدِّس مهنتها السامية:

"أن تعلِّم ولداً فقد علَّمت فرداً

وإن علَّمت بنتاً فقد علَّمت أسرة"

كانت

تعبق رقَّة وإنسانيَّة، دافعت عن حقِّنا المشروع في الاختلاف، فلوحقت طويلاً، حتَّى ماتت كمداً يا سيف.

ثمَّ نيَّتي في الانتحار الَّتي أقلعت عنها مع بدء حوارنا.

فجأة أرتجلُ في عشق سوريَّة:

افتح عينيك
على أفقِ وطنٍ
هو أجمل الأوطان

.

.

[.....]

حدَّثني سيف عن ساحات مملوءة بالبشر والصراخ.
فقمت أفتح باب السياسة كعادتي:

ـ لا بدَّ من تداول السلطة، وتعدُّد الأحزاب.

ـ إنَّنا بحاجة إلى ثورة يا بشير.

ـ تقصد حواراً، يشترك فيه الجميع على قدم المساواة؟

ـ بل نقتلعهم من السلطة لأنَّنا أحقُّ بها.

أتنهَّد في آهة عميقة

تجرح سقف حلقي، وأنا أسترجع ما قاله شكسبير: "نحن بحاجة إلى الخلافات أحياناً لمعرفة ما يخفيه الآخرون

فقد تجد ما تنحني له احتراماً

وقد تجد ما يجعلك في ذهول..."

صمتٌ

وصمتَ

أبحث عن رأس خيط للكلام فلا أجده: غريبَين يتأمل كلٌّ منا أعماق ذاته

متقاربَين بيننا جدار فحسب

متباعدَين نعمَهُ في هوَّة من الشكِّ المريب والحذر.

فجأة

يطلب أن أوافيه بهذه السكين، التي عثرت عليها فأوصلُها له من خلال شقٍّ، وسَّعه أسفلَ الجدار.

وانفتح

بابي

... أخيراً

جاء الحارس

اجتاز بي زنزاناتٍ كثيرةً، وأنا أحدس داخلي:

"كم من أحلام مجهضة هنا

تتوق إلى الانعتاق".

حتَّى إذا ما وصلنا إلى غرفة مضاءة بسطوع أخذ يأمرني: "افتح عيونك يا كر".

أحاول فلا أستطيع، وقد عشت طويلاً تحت رحمة نواصة خافتة، وضعت لضرورة مراقبتي.

يأخذ الحارس موزة من صحن الفواكه الموضوع جانباً، يقشِّرها بسرعة، ثمَّ يلقمها فمه دفعة واحدة.

حين يراني واقفاً يلكزني بكوع يمينه:

- اقعُد ولاه.

فأقرفص جانباً

أقوِّس ظهري

رأسي بين ركبتي

ألفُّ ذراعيَّ حول ساقيَّ السائختين

وأضغطهما في قوَّة متكوراً

مثل جنين

لم يولد بعد.

فجأة

يضرب الحارس الأرض ببسطاره الثقيل

فتتلجلج أسناني في فمي، وأفتح عيني مكرهاً لحظةَ دخول الضابط، الذي يقدِّم لي مجموعة أوراق:

ـ وقِّع هذه الأوراق، لقد أفرجنا عنك.

يردف مباشرة:

- لا أحبُّ أن أرى وجهك ثانية هنا.

تنسلُّ الخطوط من بين يديَّ ورداً جوريةً حمراء

قهوتي حلوة للمرَّة الأولى

يدخل الصباح حجرة قلبي وجلاً..

ورحت أستنشق الأكسجين بعمق وأنا أخرج من باب السجن...

العشب

عليه

ينبت

حجر

تدهشني

ساحات دمشق ألفتها الطيور ذات الألوان المتعدِّدة، لكن ثمَّة زعيق صاخب أغلب الأحيان، مع ملاحظة ازدياد عدد الصيدليات.

تضجُّ الساحات بالعشب الأخضر، وسطها تقسيمات محدَّدة لمرور المشاة، تشكِّلها الحجارة المفروشة في الأرض مع برك مياه، وأزهار متنوِّعة تحيط بالمقاعد الموضوعة

لجلوس أبناء الحيِّ والزائرين، لا سيَّما العشَّاق من كلِّ الأعمار!

بعد أيام

رجعت إلى السجن أريد الاطمئنان على سيف أخبروني أنَّه قطع عروق معصميه بسكين حادَّة. فاستعدت شكواه الدائمة أنَّهم احتجزوا نظارتَهُ الطبيَّةَ ذاتَ العدسات الزجاحيَّة خشيةَ أن يستخدمها في الانتحار، وهجست: **"جميل أن يموت المرء في سبيل وطنه، لكنَّ الأجمل أن يعيش لأجله"**.

ثمَّ خرجت مسرعاً إلى ندوة حواريَّة موسَّعة تحت عنوان: "الخروج من عنق الزجاجة لإنقاذ سورية"...

مشيت صامتاً: **"دمشق هأنذا خارج السجن فدثِّريني بياسمينك ولتمضِ إلى غير رجعة**

أيام الدموع".

طعم مرارة لاذعة

تحت لساني

جو لاهب يلفح وجوهنا

وثمَّة عربات

تحمل كتباً مدرسيَّة إلى الأطفال في أقصى قرية

سوريَّة

كتب على أولاها بخطٍّ جميل:

"**الطريـــــق طويـــــــــــــلة**

نبدؤها بخطوة".

انبثق

ضوء خافت مثل جرح قديم، كاد يصدأ

فأتَّخذُ مكاناً ظليلاً وسط حديقة واسعة عند مطلع شارع الحريَّة

وأنا أحدِّث نفسي:

- **كثرة الحدائق**

وتنوُّع الأزهار

يزيد الجوَّ عطراً

زكيًّاً..

عبيراً

وأنفاسنا

النير

ـ لا أستطيع تقديم مسوِّغ لما أنا فيه..

مساءً

عـدت إلى غـرفتي، أفكِّـر بـيدي اليمنـى، بعـدما أخبرنـي الطبـيب الجـرَّاح بـضرورة مواسـاتِها - بـدت لـي كـشخص آخـر تجـب محادثته، وربَّمـا البدء بصداقته من جديد -

نظـرتُ إلـيها في إشـفاقٍ، وضـماد مـبقَّع بالـدم، يلـفُّ إصبعيها، مسترجعاً أوامـر المعلم أن أتدرب على الكـتابة بالأخـرى، الـتي أخـذت طـريقها الآنَ إلى أخـتها تطـبطب عليها، كـأنَّهـا تهدهـد طفـلاً مريضاً حتَّـى ينام: **"مظلومة أعضاؤنا**

لا نتذكرها إلّا في لحظات الألم والافتقاد".

أتساءل:

"هل ليدي خيالها الخاص

فتقودني

لأكتب ما تشاء هي

كي تبرز موهبتها أمامي؟"

لأنَّ ما أريد قوله مجرد فكرة قبل أن تسطِّرها بخطِّها الجميل، فيصبح لها وجود واقعي، حتَّى إنَّها -في كثير من الأحيان - تكتب أشياء من عندها، لا تكون في خاطري.

*

كانت البداية

عندما كلّفني بكتابة خطبة، يلقيها في حفل جماهيري بمناسبة يوم الأمن العالمي، فحدستُ داخلي وأنا أتأملها مكتوبة بكلِّ جمال وإتقان:

"مؤكّد أنَّ الذبذباتِ الناتجةَ عن إصبعيها: الشاهدةِ والوسطى تحديداً

هي المسؤولة عن هذا الجمال
الذي أورثني إياه والدي وعظَّمه عندي المعلم
مذ صار يأمرني أن أكتب له التقارير
بخطي الجميلِ
كأنَّه نقش بديع".

شجعني كثيراً

بل كافأني بمبلغ مغرٍ

أمر محاسب الإدارة بأن يصرفه لي فوراً، وهو يعدني في إصرار وحزم:

- كلَّما كتبتَ تقريراً لك مكافأة مجزيَّة، ما رأيك؟

وماذا سيكون رأيي؟ وأنا شاب أحاول تجهيز نفسي للزواج من خطيبتي ماجدة، التي تصرُّ على شراء شقَّةً، وغرفةَ نومٍ فاخرة، أسوةً بأخواتها!

بالمختصر

ابتسمتُ في وجهه، وأنا أحني رأسي بخشوع

كما يفعل الجميع، شاكراً كرمه الباذخ:

ـ أنت تأمر يا سيدي.

منذ ذلك اليوم المشؤوم

وأنـا أؤدي واجـبي فـ" تقـررت" علـى زملائـي أولاً ثـمَّ وسعتُ مجال شغلي إلى أهالي الحيِّ الذي أسكنه

بعد ذلك

أقاربي، حتَّى عائلة بيتي

وأمسيت مهووساً بالمشي ليلاً، يدوِّخني هذا المعلم: دائم السأم، كثير الضجر، لاسيَّما منتصف الشهر ــ والبدر ذئب ساهر في السماء ــ حين يظلُّ صاحياً حتَّى الفجر، يقلِّم أظافره.

ذات مرّة

سألته بسذاجة عن مبرر هذه التقارير أجابني: "لمعرفة توجهات المواطنين".

أضاف مباشرة: "من أجل سلامة الوطن".

إلى أن أخبرتني ماجدة باعتقال والدها مستغربةً ذلك، لا سيَّما وهو متكتِّم على مكان إقامته:

ـ أنا لم أخبر أحداً سواك!

صمتُّ بلا ردٍّ كعادتي، عقبتْ: "لأنَّك كنت واحداً منَّا".

فاسترجعتُ سؤال المعلم المتكرر عنه. ثمَّ طلبه أن أكتب تقريراً، سوف يظلُّ سريَّاً. وعليه رفَّعني رتبةً استثنائية إضافةً إلى المكافأة المعهودة.

بعد فترة

استقصيتُ أخباره على طريقتي، عرفت أنَّه أعدم لذا قررتُ أن أقتلع هذه العادة الشريرة من جذورها فوضعت إصبعَي ـ أقصد الشاهدةَ والوسطى ـ متلاصقتين على الرخام البارد في المطبخ، بينما ضممتُ الأصابع الأخرى إلى بعضها، وبالساطور الحادِّ الذي اشتريته خصيصاً من سوق الحدادين بترتهما بعد عدَّة محاولات فاشلة، وأنا مغمض جفنيَّ نجحت في آخرها حين قسَّيتُ قلبي، وهويت بقوة، كما لو أنني أقطع لوح جليد. فشعرت بحالة غثيان مرٍّ.

لففتها

بقطعة قماش سميك، أعددتها مسبقاً. وتوجهت إلى عيادة قريبة زاعماً أنَّه حادث قضاء وقدر نتيجةَ عدم الانتباه.

وإذ تذكرتُ موعدي مع ماجدة، استعجلتُ الطبيب الجرّاح، فسألني عن السبب قلت:

ـ لديَّ عمل مهم.

لاحظ اضطراب نبضي، ولمعان عينيَّ، في بريق صارخ، فسخر مني:

ـ ألا ترى حالتك المزرية، وتسعى لموعد غرامي؟

لحظتها وددتُ سؤاله:

"لو وضع مكاني

وهذه الظروف الثقيلة

كجبل قاسيون

تُمارس عليه طوال الوقت

أما كان تصرف مثلي؟"

طبعاً

لم أكشف للطبيب عن هواجسي، وما استوضح الأمر، بل اكتفى بأن أوصاني بضرورة مواساة يدي اليمنى، والتحدث معها، كما أخبرتكم، لأخرج من العيادة مسرعاً، أشتري باقة ورد أبيض حتَّى إذا ما دخلت غرفتي جعلتُ الباقة خلف ظهري بانتظار أن تقرع ماجدة الباب، وأنا أخاطبها في سرِّي:

"تأتين نسمة عطر

تنعش قلبي

وروحي تصحو من كبوتها".

*

جلس ينتظرها:

ما فتئ يرى فمها صورة جميلة لصفي لؤلؤ مؤطَّرَين بخاتم من كرز، وهي تسأله ببراءة:

- هل أحبل إذا قبلتني؟

ابتسم

ولم يجبها، فأردفت: "أنا لا أمزح: فعلاً أخشى ذلك كلَّما قبلتني".

استشرف مجيئها في اشتهاء مرٍّ، يغرقه وسط بحر عميق من حزن عتيق، فيفتح بوابة الآهات الموجعة على مصراعيها:

"أيهما أكثر ملوحة:

دموع الحزن

أم الفرح؟"....

سوف تمنه أنَّها ما انصاعت لتهديدات والدها المتكررة بالتخلي عنه، وتبكي في شهقة لاذعة تحرق القلب:

- لم يبقَ لي غيرك، فعجِّل في تجهيزات العرس!

وكعادته

لن يردَّ بكلمة

كأنَّ داخله وحشاً

يصعب ترويضه، يتضخَّم مع تفاقم الحاجات المتزايدة يوماً بعد يوم، لذلك تمسك يده اليسرى، وعلى باطنها الطريِّ تكتب بخطِّها الجميل:

ـ أحبُّك يا بطل الأبطال.

يتذكرها بمحبَّة بالغة، ترشح بالحنين العاثر:

"كم ستكون أيامي معها سعيدة!"

تأخر الوقت

جاوز منتصفَ الليل، فدهمه الحنين، إذ لم تحضر، بل راحت تأتيه في أحلامه الملونة، بالأحمر القاني، دون أن يستطيع محوها من مخيلته حتَّى الآن فدمدم داخله: **"يا لتعاستي خسرت حبيبتي"**.

وظلَّ يسند رأسه إلى جدار من خلفه متلبساً بالارتباك، لا يعرف كوعه من بوعه، كما يقال في الأمثال، مستغرباً كيف شهدت عليه يده اليمنى أنَّه بتر إصبعيها ـ عامداً متعمِّداً في لحظة صحو عابرة ـ بتحريض من خطيبته ماجدة طبعاً.

حدس مشفقاً على نفسه: **"خلال هذه السنوات ربيتَ جاسوسةً عليك**

وها هي تشي بك الآن

لتقف أمام المعلم يحقق معك، يا -. -. -."

نقـز في قـشعريرة مفاجـئة، غـير أنَّـه خـشي - بفعـل تلقائي ـ ذكـر اسمه الحركـي....

أيـام بلـون الأمـل الموشَّى بالأرق، كـأنَّها إشـراقة الـزمن الماضي تغتلي في نفوس الشبان:

- ذات ضوء

بانـت حياتـي مفعمـة بالـصور، كمـا لـو أنَّ الـنجوم تحاكي القمر الساطع في كبد السماء.

إنَّها بقايا

مذكـراته مـع حبيبـته أمجـاد - هكـذا تحـبُّ أن يناديها - مذ كانـا رفيقين في حزب، لم يستطع تـأمين عمل لأيٍّ منهما.

وجـدٌ يأتـي مـن نافـذة الأمـس البعـيد، زمـن للمـواجهة بمداد القلب، فما جدوى الفرح دون بياض آسر؟

*

قبيل جلسة التحقيق،

حيث سيعترف لا محالة أنَّه بتر إصبعيه متعمِّداً، قام

بقطع الجزء الأمامي من لسانه بواسطة سكين حادَّة كالشفرة، ورماه في الحاوية المركونة إلى جوار مقر عمله، حتَّى إذا ما عاد من العيادة القريبة، ووقف أمام معلمه، الذي طالبه باستمرار تقديم خدماته من أجل سلامة الوطن، أومأ له:

-لكنَّ يسرايَ كلماتها كخرابيش الدجاج يا سيدي!

-ستُكلَّف بالكتابة على جهاز الكومبيوتر.

ثمَّ طمأنه على حالة قلبه

الوحيد هذه الأيام

بعدما اختفت حبيبته

مثل فص ملح ذاب:

-إنَّه أوَّل حبٍّ في حياتك، وسيكون بعده الكثير.

مضيفاً

وهو يطبطب على كرشه المتهدل أمامه:

ـ فكِّر بامرأة غنية

عندها شقَّة

توقظ فيك لهيب الجنس بعدما أضعت وقتك سدى مع ماجدة.

فصار
يخرج من عمله ـ رغم عاهَتي يده اليمنى
ولسانه المقطوع ـ ليجد سيارة فارهة
شقَّة في شارع هادئ
وزوجة
" لقطة"
مثلما يصفها المعلم.
لكنَّ
ذكريات ظلَّت تؤرقه
فقر مع أمراض كثيرة
أب أرمل
زوجة أبيه القاسية
الرفيقة ماجدة + طلباتها التي لا تنتهي
وتتملكه حالة من القرف
فقد يسير طويلاً
في ليلة مظلمة سوداء
ولا يعرف كيف يتوقـــــــــــــف
تخيفه هذياناته

المتكاثرة هذه الأيام
فيستمع إلى هواجسه بريبة
ويسجل
على جهاز الكومبيوتر طبعاً
كلَّ نأمة تصدر عنه..

إنَّ القصيدة...
هكذا يقول شاعرنا درويش، وأقول:
ـ إنها القصّة، رمية نرد
على رقعة من ظلام
تشعُ
وقد لا تشعُ
فيهوي

الكلام
.
.

في انتظار.. أيام سعيدة

(زمن الضيق)

برسم الموتى الأحياء

دخل المحاضرُ
شعرٌ مرفوعٌ إلى أعلى مثل ريش طاووس
وجهٌ مجعَّدٌ
فمٌ كبيرٌ عينان واسعتان مع نظَّارة طبيَّة
تزداد سماكتها كلَّما مرّتِ الأيام..
إنَّه د. صموئيل، يضيف إليه طلَّاب قسم الأدب العربي ـ لإضفاء صفة الواقعيَّة على اسمه الكبير ـ لقب بيكيت تيمُّناً برائد مسرح اللامعقول، مؤلِّف:

في انتظار غودو

لعبة النهاية

الأيام السعيدة...

وما حدث للدكتور لا يسرُّ صديقاً، إذ اضطرَّ لإنهاء محاضرته إثر تلقيه اتصالاً من مشفى التوليد فزوجته شام ـ كثيراً ما ظهرت عليها عوارض الحمل بشكل مفاجئ ـ توشك أن تلد:

"ما أجمل أن تدخل بيتك

تعانقك زوجتك في قبلة ترحيب

فتدعوك إلى سفرة الطعام مع وجبة حبٍّ وأحاديثَ شهيَّةٍ

وسط أطفالك / ملائكةِ الأرض".

بدا لي

رجلاً موجعَ القلب، سخيَّ الدمعة، يتساءل: كيف ننسج الخيال ليصبح حقيقة واقعة؟

ثمَّ يهجس: "حلم في قدح: أكتب لأحبَّ نفسي

مع أنَّ الكتابة هي الوجه الآخر لمأساتي".

عَنوَن محاضرته:

مقدّمة في العبث، وهو يفكّر بزوجته - ستّ الستّات - كما يناديها:

- أحسُّ، وهي تحدّثني عن وليِّ العهد / ابننا القادم كأنّها تقمّر المساءاتِ الباردة، فتصبح دافئة مثل قلبها.

ويردف في سرّه:

"دعيني زهرةً

عطرها بعض شذاك يا شام"..

منساحاً في وجد مشتهى مع لفظ اسمها:

يا الرابضة على سور قلبي

غيمة عطر: هل تصدقين؟

كلما تذكرتك

تشتعل روحي بالحنين..

وصل

محموله إلى الشاشة المثبَّتة على السبورة الخضراء في صدارة قاعة المحاضرات، حيث يوجد جرس معدني عتيق، وساعة الكترونيَّة متوقفة، فأسال نفسي في صمت:

"لمَ خارت قواها

فأمست دون حراك هكذا

هل أصابها الخدرُ العام؟"

يرطِّب لفافته بلسانه الطري، ثمَّ يشعلها بعود ثقاب صيني الصنع، وهو ينوس برأسه ذات اليمين، وذات الشمال، كضوء شاحب، أنهكته عتمة السنوات الطوال.

ثمّة شعاع شمس

يحاول - من خلال شقٍّ في الجدار الشرقي - الوصولَ إلى القاعة.

*

بضعَ ثوانٍ

وأضيئت الشاشة، فظهر مرتفَع ضحل، شجرة في أعلاه، أزهرت بأشكال متنوِّعة، وثمَّة شخصان يبدوان من خلف ستارة شفَّافة.

أخذ الرجل

بدا يمتطي صهوة ريح

ينشد بصوته الرخيم:

لتوقد كلُّ مصابيح العالم

كي نهزم العتمة..

سألتْه المرأة: "ماذا تعمل؟"

ردّ عليها: "أنا كاتب".

مضيفاً: "أنا أصرخ إذاً موجود، فالكاتب يعتقد أنَّ العالم وجد بصيغة غير صحيحة، وعليه تصحيحها من هنا قلقه الدائم يا سيِّدتي".

ـ لكنَّك تغنِّي!

فشرح لها العلاقة المتبادلة بين الغناء والكتابة

الَّتي تحتاج هذه الأيامَ إلى قارئ فعَّال، ينتج معنى النصِّ الَّذي يقرؤه.

هنا استفسرت الطالبة رقم 5: "ما تعريف النصِّ دكتور؟"

ـ تجاور لغوي يضع مألوفه في القراءة على محكِّ الاختبار عبر أسئلة وجوديَّة مقلقة.

- والحداثة؟

- إنَّها تبدأ بالقراءة أولاً، لاستشراف نصٍّ يخلد مع الزمن، كي نخرج من قيم باليَّة، تسيء إلى حياتنا نحو أخرى، تجعلها تتقدَّم نحو الأفضل.

تدخَّل الطالب رقم 3:

"حين شرع بيكيت في كتابة نصوصه الغرائبيَّة وضع نصب عينيه الإنسان الَّذي يخضع لنظام مهيمن فحاول بكلِّ ما أوتي من قوَّة خلخلته.

ـ هل يمكن عدُّ نصوصه تلك شهادةً على عصره؟

ـ بالتأكيد: يقدِّم بيكيت عبثه، ولا معقوليَّته، عبر كوابيس - وفي هلوسة أحياناً - حيث الناس يتداولون كلامهم، كأنَّه حوار طرشان، لا يعوَّل فيه إلا على حفيف اللغة، لدرجة أنَّك تحسب الموتى أحياء، إذ تظهر كلماتهم متخشبة، لا تؤدي معنى محدداً، ولا تفيد التواصل فيما بينهم.

أضاف

الدكتور صموئيل متخصِّص الأدب الحديث من جامعة فيينا: "وحدَه الكاتب يغامر ليصوغ من أنغام الحياة المتنافرة لحناً متميِّزاً، تسمعه فتصحو، كأنَّك كنتَ في غفلة، يصدح داخلُكَ هاتفاً: أنا أكتشف ذاتيَ الآن".

أطفأ لفافته آملاً أن يقلع عن هذا المظهر البشع لأستاذ جامعي!

لم يكن في يوم من الأيام إلا ابن عصره:

ألَّف مسرحية سمّاها "دفاتر السيد بيكيت" تجري أحداثها في مقبرة

حيث كلُّ الشخصيات موتى ما عدا البطل

الذي يصادف حوادث مفزعة

تشيب لها الولدان / حسب تعبيره

فيقرر الانتحار برمي نفسه من أعلى بناية في المدينة

لكنَّه يفشل وينتهي العرض بعطسة مفاجئة تتسبب بموته دون إنذار سابق.

عاودت الطالبة رقم 5 السؤال:

"هل يعيد التاريخ نفسه؟"

ـ من المؤكَّد أنَّه لا جديد تحت الشمس يا ابنتي.

هكذا

علّق بدماثة، يعرفها الجميع لا سيَّما زملاؤه في مجلس الكليَّة الَّذي يرأسه. فعندما حضر الاجتماع الأول ـ كانوا راضين عنه حينذاك ـ راحوا يحلّقون في سماوات الخيال، فما كان منه إلا أن سقط مغشيَّاً عليه وفي المشفى الجامعي، سأله الطبيب المناوب عن سبب غيابه عن الوعي أجاب:

ـ عندي فوبيا(*) من الأماكن العاليَّة يا حكيم.

كتب في الآونة الأخيرة رواية حول الحريَّة عنوانها: "مجرد شعارات" أوقفوه بسببها فترة طويلة ولم يطلقوا

(*) فوبيا: رعب أو خوف شديد.

سـراحه إلَّا بعدما اعترف أمام السادة المحققين: "أنا أكتب بينما الفأر يلعب في عبّي يا عالم". ويقصد القول: يا ناس.

نوافذ للروح

حنين فائض للعيش، دفعه إلى القلم، يلتقط – بعين ساخرة لشخصيات عايشها عن قرب – تفصيلات مهملة عن الحياة

كأنَّه عندما يكتب يضحِّي بنفسه على مذبح الحبر المسيَّج بالأرق.

على صفحته

في الفيس بوك أكَّد ذلك، ثمَّ نمَّق رسالة مختصرة إلى الجـــرائد، والمجلَّـــات المحلـــيَّة، والعالمـــيَّة، بهـــذا الخـصوص، أعطاهـا لـسكرتيرته الجمـيلة، فلـم تعـرف كيف تتصرَّف، لذلك أكلتها مع قطع الشيبس اللذيذة الَّتي تلتهمها بشراهة كلَّما جلست إلى الحاسوب.

*

بدا

المكـان علـى الشاشة ثابتاً، دون أن يتغير، بل تتوضَّح - شـيئاً فـشيئاً، مـن خلـف سـتارة مغـبرة - وضـعيَّةُ

الشخصين: فالمرأة مدفون جسدها تحت سيل من القشّ لا نرى إلا شعرها، مع بقايا جناحين مبرقشين

والرجل خلف كومة من أكياس الرمل، لا يظهر سوى رأسه، وآثار قرنين ضامرين، بينما تتدلّى من شجرة الحياة - فوق المرتفع الضحل - ثمار ذات أشكال متنوِّعة.

للحظة يختلط الحابل بالنابل، أو كما يقولون: تدور الدوائر، حيث ثبت أنَّ وسادة تنام عليها، بعد بضعة أعوام تصبح عشَّاً للميكروبات، يجب أن تغيرها، لذلك يلوِّح الطلاب برؤوسهم في اهتزازات متوتِّرة....

لقد جاؤوا بدماء حارّة، وسؤال مقلق:

"وهلق لوين رايحين؟"

لذا أصرِّح في سرِّي:

"عسى يكون الآتي أرحم وطأة

ممَّا سبقه من الأيام!"

فجأة

تعمُّ قاعةَ المحاضرات حالةُ تململ، همهمة، وأصوات صاخبة، لم أعد أميّز أرقام أصحابها، تحولت إلى حلبة شغب حين امتعضت المرأة من أسعار المواد الغذائيَّة، ومساحيق الغسالات الأوتوماتيكيَّة، والأدوية...

يضيف الرجل: "لا تنسي نكّاشات الآذان، معجون الأسنان، وشفرات الحلاقة يا سيِّدتي".

ثمَّ خرج من وراء الأكياس المكوّمة فوق بعضها، فظهر لابساً درعاً من حديد مثل محارب قديم، يتقدم من المرأة الَّتي سألته خائفةً:

- ماذا ستفعل؟

أجابها في ابتسامة موجزة:

- أريد أن ألمس وجهكِ!

ـ فقط؟

ـ فقط.

ـ لكنَّ الوقت فات.

لذلك عاد إلى متراسه الرملي، يندب حظَّه:

وحدي

وأغنية تاهت على الطريق

صدى حريق..

أشار إليَّ، اقتربتُ منه، همس في أذني:

ملء فمي ماء

لكن

لن أكفَّ عن الغناء..

بعدئذ

فصل د.صموئيل محموله عن الشاشة، في صدارة قاعة المحاضرات، فبدت كهفاً بدائياً، إثر تلقيه اتصالاً عاجلاً من مشفى التوليد، جعله يسرع في إنهاء محاضرته عن العبث، إذ ثبت أنَّ ستَّ الستَّات زوجته السيدة شام لم تحبل حتَّى الآن على الرغم من آلام المخاض المبرِّحة.

تكوَّرت دمعتا حزن على ذلك الجنين المأسوف على شبابه، كرجتا بغتة من عينيه، منعهما كبرياء الأستاذ الجامعي من الانسياح إلى وجنتيه الشاحبتين، فتعلقتا بإطار نظارته السميكة. وتمنى لو يقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة: "ليس للأب ظلٌّ على الأرض

إلَّا أبناؤه

فلا نامت أعين الجبناء".

ثمَّ خطَّ على هامش محاضرته: في مرحلة ما يدفع المرء ثمناً باهظاً لما قام به، مزيداً من الدموع والألم. ومع أنَّ الحياة لا تخلو من فترات سعادة، لكنَّها تبدو قليلة، لأنَّها تمرُّ بسرعة من فرط سعادتنا بها.

لملم من على الطاولة الزجاجيَّة مراجعه المعروفة للجميع: في انتظار غودو، لعبة النهاية، والأيام السعيدة...

وضعها في حقيبته الصفراء فاستحالت طائراً غريباً، شكله مريب، راح يصرخ في نزق:

- ما دقَّت الساعة انشقَّ القمر.

وبانت

من خلال شقوق واسعة في الجدران أشعة شمس تتقهقر إلى ذيل السماء.

لحظتئذٍ

راح الجرس يقرع مثل هدير الرعد

بينما بقيت الساعة الالكترونيَّة

على حالها

متوقِّفة

فوق السبورة الخضراء

خائرة قواها

دون حياة..

iii ذات معترك أخضر

حلبة1.. وردة الطفولة.. الحمراء
حلبة2... حياة جديدة

- سأثبت لكلِّ البشر أنهم مخطئون لو ظنُّوا أنهم يتوقفون عن الحبِّ عندما يتقدمون في السنِّ بينما هم، في الحقيقة، لا يتقدمون في السنِّ إلاَّ عندما يتوقَّفون عن الحب.

- **غابرييل غارسيا ماركيز**

وردة الطفولة . . الحمراء

"بلا حبٍّ
يغدو كلُ شيء ضيِّقاً
إنه وقفة للانطلاق نحو الحياة من جديد
بعيداً عن الرتابة والملل".

هكذا أهجس صباحاً، وأنا أخلع سلطان النوم عن عينيَّ ثمَّ أرتدي ثيابي مسرعاً...

**

أيُّ لحظة
يعيشها الإنسان في حالة حبٍّ هي عيد عندما تحبُّ تصبح أيامك أعياداً.
وأتشهَّى داخلي:
"في هذا اليوم الجميل
لو أضع وردة جوريَّة على طيفك البهيِّ

حبيبتي

فتهطل السماء مواسم فرح".

تفتح دمشق

كلَّ صباح، حضنها الرؤوم لزحامها الأليف: حرفيين، عمال مياومة، موظفين، تجار مُفرَّق طلبة مدارس، ربَّات بيوت باتجاه سوق الخضار

أدباء، صحفيين، سائحين أجانب، فنانين، باعة متجوِّلين، مغامرين، متسوِّلين على مفارق الطرقات خطاة، باحثين عن اللّه، سائقين، بنائين...

أبنية تعانق الشمس

أناس يحبِّون ويكرهون، أقوياء بما يكفي

لأنَّهم جذور هذه المدينة المشرئبة نحو الضوء يتحايلون على الحياة كي يعيشوا بكرامة متلهفين للحب...

ريح منعش يهبط على القلوب، فيطرِّيها بعد يباس وتصحو روحي من نشوتها، لأتساءل في غيظ:

- لماذا لا نعطِّل في هذا العيد مثل غيره من الأعياد؟

ثمَّ أفكِّر بلقاء صديقة قديمة، اعتادت أن تقدِّم لي وردة حمراء في هذا اليوم: 14 شباط، غير أنِّي أسخر مني:

"ما أدراني بظروفها

بعدما تزوجتُ

وانقطعتُ عن مواعدتها منذ سنوات؟"

علمتني

روضة أبجديَّتها، لأكتب قصائدي بوجد أخضر: كنت غرَّاً، أحبو على سفح اللغة، فتقوقعت في دهاليزها ناسيّاً أنَّ الحياة على السفح الآخر، حيث الوجود الحقيقي للبشر، واللغة مهما اتسعت لن تعوضنا عن الحياة:

لو ألتقيها يصير العيد عيدين"....

معها مرَّت الأيام كثعلب ماكر

يزهر ياسمين قلبي، وينعجن بالتحنان:

"نعم لنضارة الجسد علاقة بنضارة الروح".

أسترجع صورتها: جذَّابةً كانت، تتأنَّق في انسجام، ينساب شعرها كشلال على كتفيها، صوتها مخملي، وهي تغني لفيروز:

" يا حلو شو بخاف إنِّي ضيِّعك..."

عندما أستمع إليها تحضر قريتي، هناك في شمال حلب، قصص مراهقتي وسط قطاف القطن، وسهراتنا في خيم الرعاة: حكايات مضاءة بأوَّل مغامرات الحبِّ: غصص أخرى، تضاف إلى كبواتي الكثيرة: "

منذ ضحى عمري

إحساسي عميق بالقهر

وصولاً إلى شفق ذاهل

يؤطّر حياتي الآن".

هكذا

أهجس لحظة وصولي إلى مكتب الوظيفة، حيث يعلن زميلنا الدونجوان:

- إذا أردت أن تبقى شابّاً فاكسر المرايا من حولك، وانظر في عيني من تحب!

نصمت، فيستفيض كعادته:

- لا تتحدث عن حبِّك الأوَّل، حبُّك الأخير هو الأوَّل دائماً.

يأخذ مكانه على كرسي هزَّاز محدقاً في عينيَّ

وهو يتفذلك:

"من دون جوقة نساء ما معنى الحياة؟"

فجأة

أنتبه إلى طاولتي المكتظَّة بالمعاملات، فأحمل بعض المراسلات العتيقة، وقد علاها الغبار، متوجهاً إلى الديوان العام، لتسجيلها قبل إيداعها الأرشيف وهناك تسألني المديرة:

- لماذا لا تهنئنا بعيد الحبِّ يا أستاذ؟

أنظر إلى الزميلات، كلّ واحدة أجمل من الأخرى، ثمَّ أماشيها في مزاحها:

ـ لمن أهدي وردتي الحمراء سيِّدتي؟

تغتاظ الزميلة المحجَّبة، فتحمرُّ عيناها مستنكرة:

ـ هذا عيد للغرب، حرام علينا.

تنهرنا كالأطفال

وكأنَّنا تلاميذ توبِّخنا:

ـ استغفروا الله.

فأخرج مسرعاً من حرملك الديوان...

*

يهاتفني صديقي حيدر معلناً قراره النهائي بقطع علاقة حبٍّ، استمرت سبع سنوات مع زميلته سهير.

يصمت في لحظة وجع مضن:

ـ تعرف أنَّها تعدُّ رسالة الماجستير عن شاعرات قتلهن الحب.

أهزُّ رأسي بالإيجاب، في سذاجة، كأنَّه يراني، فيكمل حزيناً:

ـ لا أستطيع الارتباط بها، لأنَّني متزوِّج.

أخيراً أنطق، في صوت قادم من أعماق بئر سحيقة:

- لكن ألم تجد أنسب من عيد الحبِّ، لتخبرها بقرارك هذا؟

يطالعني شوك السؤال المرِّ غصَّةً خانقةً في الحلق:

"لماذا يبحث الرجل عن عطر آخر

ولديه عطر زوجته.

الّذي اشتراه لها بنفسه؟"

*

أعود إلى المنزل بعد يوم وظيفي معتاد، فإذا ولداي يستأذنان - عند المدخل تماماً - أن أسمح لهما بلعب كرة القدم مع رفاقهما.

- أين أختكما فينوس؟

- عندها دورة موسيقا.

فأحدس: **"إذاً هي فرصتي أن أغفو قليلاً قبل بدء الصخب باجتماع الأولاد**

سيَّما وزوجتي في درس خصوصي".

هكذا تخبرني، بعد أن تعايدني في لهجة حنونة:

- هبي فالنتاين حبيبي.

طبعاً بالموبايل.

فتخطر

لي فكرة إرسال تهنئة رقيقة عبره، وأختار زميلة متقاعدة، عزفت لها مؤخَّراً، في شأن يتعلَّق بالعمل، ردَّ عليَّ صوت نسائي عذب، وتوقَّعت أن تعاود صاحبة هذا الصوت ــ أتخيلها شابَّة جميلة ــ الاتصال لمعرفة مصدر هذه التهنئة الرقيقة.

حصل هذا بالفعل

إذ سرعان ما جاءني ردها:

" يا رسالتي رنِّي / كوني مثل النسمة عني

سلمي لي على الغالي / وعيِّديه بالنيابة عني..."

لا أقول إنَّني لم أفرح من قلبي، فأن تصفني صاحبة الصوت العذب، بالغالي شيء جميل، لذا أنا مستعد الآن للنوم إلى حدِّ الحلم....

يرنُّ الموبايل، أتعرف إلى نغمتها، التي جعلتُها مميزة: **"ها قد بزغت المرأة التي انتظرتها طويلاً!"**

تواردت صورتها أمامي، يتسارع نبضي، أشمُّ رائحة عطرها الفوَّاح، كأنِّي لم أشمَّه من قبل، يهرب الدم

البارد من دمي، وأنا اتساءل في سرِّي:

"ما هذه الشرارة تطلق المارد من قمقمه
بمجرَّد همسة حبٍّ
تحمل نسغ الحياة؟
كيف تتدفق العواطف في ثنايا الروح
ليحدث الانسياح داخلي مع كلِّ خفقة قلب
كأنَّ حنايا القلب هي مركز الحياة!"

يوقَد

جمر الرغبة في صدري، فأمضي إلى موعدها بأحلى أناقتي، مسترجعاً حديث زميلنا الدونجوان:

- لا أحبُّ الحصول على الفتاة بسهولة، بل أن أتعذب في سبيل ذلك، ما يشعرني بقيمتها. لكن لا تنسَ يا صديقي أنَّ الحبَّ هذه الأيامَ يحتاج إلى ترفٍ لا تملكه: شقَّة خاصَّة، وسيارة!

تزقزق الشحارير، ينوِّر اللوز عبر طريقي الطويل إليها، حاملاً باقة ورد جورّي...

تظهر جميلة كما تخيَّلتها، تغني مثل صديقتي القديمة بصوت مخملي:

" أنا ما بدِّي عراس

أنا كان بدِّي الحب..."

نظرات ولهى

تنقّط من قلبينا ، فأمدُّ يدي إلى سفوح كتفيها ، لثمات مندَّاة على شفاه القمر: **"كلّما قبَّلتها يستعر عطشي"** تذوب تنهداتها في سمعي

فمها يلاصق أذني فتسري نار الشبق

عبر الشرايين وسط دمي..

عندئذ

تمطر السماء وروداً ملوَّنة

وأنا ألثم في اشتهاء

تفاح خدَّيها الناعمين، فيفيض اخضراري

وأحدس داخلي:

"ما أحلى الورد ذهب الحياة

يتفتَّح في قلوب المحبين

فتزهر حناناً ومودَّة

في بهجة لا تضاهى".

بغتة تصمت الشحارير في نهنهات واهنة ، يختفي اللوز ، بينما فينوس تدهم قيلولتي:

ـ بابا غمِّض، إذا بتريد.

فأسحب اللحاف فوق رأسي، وأنا أردُّ من تحت ستارة النوم الثقيل:

ـ لكنِّي لم أُفتِّح بعد.

تكرر أمرها بحزم:

ـ بابا قلت لك: غمِّض، مو نام!

لحظتئذ أُحضِر الصحو من أذنيه، فأستفيق مكرهاً في وحشة، أبحث حولي عن صاحبة الصوت العذب، ثمَّ أستلقي بعدما كنت معتدلاً، وأنا أشاكس فينوس:

ـ فتَّح، ولا ما فتَّح.

تأمرني بطريقتها المعتادة:

ـ فتَّح ورد الجوري الأحمر.

أبقى مغمضاً، لا أمتثل لأمرها، فتهددني:

ـ فتِّح بابا أحسن لك!

ثم تقدم لي وردة حمراء، عطَّرتها من عطر والدتها، وهي تقول:

- كل عيد حب، وأنت حبيبي يا بابا.

فأعود بذاكرتي إلى الخلف....

كان الرابع من تموز

مع ذلك أمطرت السماء بغزارة، فأثمر الرحم زهرة، أنجبتها زوجتي، سمّيتها فينوس تقرُّباً إلى آلهة الخصب والجمال أن تمنحها العافية والفطنة والخلال الحميدة: إنَّها تتابع دورة عزف على الكمان:

"بواسطة الموسيقا نحلّق عالياً

فنقترب من أذن الله تعالى".

فاح عبق أخَّاذ

صحَّاني بكلِّ يقظة ممكنة

لأجذبها إلى حضني

أعانقها في لهفة عارمة

وأنا أحدس مبتهجاً:

"وجود بنت في البيت أجمل هديَّة من السماء".

ثمَّ أقبِّلها في حبٍّ غامر، ماسحاً دموع فرحي بشعرها المنسدل على ظهرها

شلالات نور

ساحر

بديع..

أحبُكِ..

لأنّي

ببساطةٍ

إلى ملاكي الحارس: زوجتي

حياة جديدة

- الآن فقط عرفتك حبيبتي!

في صبيحة ذلك اليوم

لم أستيقظ، فولولت زوجتي

بينما راحتِ الدموع تنهمر على خديها بحزن بالغ:

"لم أعلم أنَّها تكنُّ لي كلَّ هذا الحب!"

كانت ليلة كئيبة، صوت الرعد يولِّد الرهبة، هطلت أمطار غزيرة، واقتلعتِ الرياحُ الهوجاءُ أشجارَ حديقتنا، فتوقعتُ، قبل أن أضع رأسي على المخدَّة

أن تقع فاجعة ما.

ملأ صراخ أمِّي الشارع، فحملوني إلى أقرب مشفى، وأخذ الأطباء يحاولون إعادة الروح لجسدي. لكن دون

فائدة، لذلك أعادوا جثتي إلى البيت من أجل إجراء مراسم الدفن.

جاء والدي، أخفى دمعاتِهِ بين جفونه، لأنَّه رجل لا يجوز أن يبكي.

أذاعوا خبر وفاتي في المآذن، معلنين أنَّ الدفن عند صلاة العصر بعد غد، ريثَّما يحضر أقربائي من قراهم الشماليَّة البعيدة.

*

وسط هذا الطقس الشتائي البارد، حيث يبعث لمعان البرق الرجفة في أوصالي، لم تمنعني زخات المطر الهاطلةُ بغزارة، من السير مسافة طويلة إلى هناك، كي أقدِّم أوراقي.

ليلتي تلك

قضيتها مع مستضيفي الأول ـ هكذا عرَّفني على نفسه ـ بينما الجميع يسمُّونه العمَّ عزرائيل، لذا رحت أناديه: يا عمِّي تحبُّباً، رغم وجهه المتجهِّم، فأخبرني أنَّ جوَّهم إمَّا صقيع قارس

أو قيظ حارق

ولا خيار ثالث.

مضى نهاري باهتاً، جرت أحداثه على وتيرة واحدة من الملل، كأنَّ مناظره صوّرت بالأبيض والأسود: ثمَّة رطوبة

شجيرات قزمة

تقيِّد جذوعها الضخمة حشائش متعفنة..

تصطفُّ الوحوش الكاسرة إلى جوار الحيوانات الأليفة جنباً إلى جنب

نسمات ساكنة بلا حركة تُذكر

أزهار منوَّعة لكن دون عطر

شمس كابيَّة على عكس شمسنا التي صبغت وجوهنا بالسمرة القاتمة، حتَّى إنَّني اشتقت إلى أشعتها الذهبيَّة تضيء شوارعنا، وتمنح بيوتنا الدفء.

اختفت

زقزقة العصافير على أغصان الشجر في حديقتنا، وهديل الحمامات غاب، افتقدتُ شجار أولادي الدائمَ، وتعصيب زوجتي على مدار الساعة.

تغلغل البرد القارس داخلي، خرق عظامي الهشّةَ، فكان نهاراً مضجراً.

أعلموني

أنَّ بإمكاني الرجوع إذا عثروا على من يحبُّني حبَّاً جمَّاً، وعندئذٍ أستطيع استعادة روحي. استفسرتُ عن هذه الـ" حبَّاً جمَّاً" فقالوا بأنَّهم يعرفون كيف يقدِّرون ذلك، وأضاف عمِّي عزرائيل:

ـ لا تأخذ في بالك، خبرتنا طويلة في هذا المجال.

مضيفاً: "سنعلن لك عن هذه الحالة بحضور فراشة مزركشة، ترفرف فوق رأسك".

ثمَّ طلبوا مني اسم المرشَّح لتلك الحالة من الحبِّ الجمِّ قلت:حبيبتي....

عصف حبُّها بكياني، فأعلنت:

"أُسكنك قلبي

فراشك ورد أحمر

سقفك قمر بهيٌّ

لحافك أغنية فيروزيَّة دافئة

مخدَّتك ذراعي".

وأكَّدت لهم بصوت واثق: "إنَّها نصفي الآخر من دونها أنا نصف إنسان".

فسمحوا لي بالتجوال قريباً من جسدي بانتظار إتمام إجراءات قبولي كالمعتاد.

*

عندما رجعتُ إلى صالون الضيوف الواسع، حيث وُضعت جثَّتي، صدمتني شهقات نساء يبكين، فتتهمر الدموع من عيونهن في نشيج متواصل، حرقات قلوب تتمزق وجعاً من أخواتي، وعمَّاتي، وبعض الصديقات.

بعد ذلك

دخلت

زوجتي..

بدا منظرها مأساويَّاً، يبعث الأسى: وجهها يقطر ألماً، كأنَّ رحيق الورد امتُصَّ من خديها، عيناها نديَّتان، وقد توشَّحت بلباس أسود.

ها هي تلملم انكسارها حشرجاتِ خيبة، إذ تجلس جوارَ رأسي المكشوفِ مسبلةً جفنيها المحمرَّين، حتَّى إنَّها رفضت مغادرة المكان مفضِّلة البقاء جانبي، مهما كانت النتائج، فلمتُ نفسي:

"ليتني عرفت أنَّها تحبُّني إلى هذا الحدِّ

إذاً لما متُّ: لكنَّها بقيت صامتة كعادتها

طوال سنوات زواجنا!"

حاولت أن أخبرها:

- إن قبلتني عدتُ حيَّاً من جديد.

لكنَّها راحت تخاطبني بعدما خرج الجميع:

ـ أعرف أنَّك تقابل فتيات، تجالسهن لساعات.

تقرّب فمها من أذني هامسة:

"أشعر أنَّك تواعد إحداهن

مثلما كنت تواعدني".

صدمتُ: **"كيف تعرف ذلك.. وتسكت؟"**

وفي سرِّي أضفت:

"بئس المرأة لا توغل في دواخل زوجها

لتعلم ما ينقصه.. قبل وقوع المحظور".

أضافت في نبرة حزينة:

- فأنت منذ فترة، أعتقد من بدء علاقتك بها، لم تعد تقربني، وتظلُّ منزعجاً طوال مكوثك في البيت، ما تكاد تدخله حتَّى تخرج مسرعاً.

رغبتْ أن تقول أكثر، لكنَّ الغصَّة خنقتها، فتحشرجت الكلمات في حلقها...

يا إلهي كأنَّني في حلم، أنا الذي ظننت أنَّها لا تعبأ بمشاعري، ولا يهمُّها إلَّا أن تأخذ مصروف الشهر، تصرفه حسب أهوائها فارضةً عليَّ أن أجلب لها أيَّ لباس،

أو مكياج، من أفخم المحلَّات في الصالحية، وباب توما، كما فعلتُ في بداية علاقتنا العاطفيَّة....

نعم أحببتها: شهور قليلة، بعد تعارفنا، خطبتها وشعرت بالسعادة تغمرني: تبادلنا أصناف الغرام، في مشاعر جيّاشة:

"فهل من رجل عاقل لا يحبُّ؟

بل هل عاش حياته فعلاً دون حب؟"

أقابلها

تعمِّدني بفتنتها فيهطل وجدي

فيض حنين....

كم جبت معها حارات دمشق القديمة حارة حارة تضحك من قلبها حتَّى لتحسبها زقزقة عصافير

ترقيني ببسمتها

أتذكرها بين الشهقة والشهقة

فأنام هنيئاً: تسكن بؤبؤ عينيَّ

وتفرد جدائلها على ضفاف روحي

بحضورها تتفتَّح ورود البهجة في قلبي..

كم كنت ولوهاً بها، لا أشعر بالساعات تمضي في ثوان عند لقائنا مختزناً مسرات العمر في نشوة لا تحدُّ...

اكتشفنا أيامذاك أنَّ الحبَّ يربطنا بالحياة ربطاً أوثق، لنختبر لذَّة العيش بسعادة، ونتذوق طعم الفرح:

"يكفيني الاحساس بأنَّ قلبي ينبض بحيويَّة

وربَّما بجنون لمجرَّد ذكر اسمها".

وقررت في يقيني:

"إن لم يكن كلُّ لقاء مع حبيبتك عيداً

فقد فتر الحبُّ

ولا أحد يعيش بقلب فاتر يا صديق".

ثمَّ دخلنا قفص الزوجيَّة، لتصطبغ نظرتي بسوداويَّة قاتلة:

"يا الله كم يتعذب الواحد منَّا حتَّى يتزوج

لكنَّه بعد سنوات

يعيش حالة عذاب لا تطاق!"

مضت السنة الأولى بسرعة، ثمَّ جاء الأولاد تباعاً، فتلاشى الحبُّ، حتَّى إنَّها اعترفت لي، بعد فترة وجيزة، أنَّها خدعتني، مرجعةً قرار زواجها إلى أنَّني رجل جاهز للزواج فحسب، وأكثر من ذلك لديها من تحبُّه الآن، فجزمت أنَّ حبِّي لم يدخل قلبها في يوم من الأيام.

وكأنَّها سمعت ما أفكر به، فردّت بانزعاج:

- لو لم أكن أحبُّك ما قبلت بهذه العيشة السوداء معك!

مشت يدها الناعمة إلى شعري، تمسّد عليه بلطافة، ثمَّ ملأ نحيبها فضاء صالون الضيوف.

حاولت مواساتَها، لكن دون جدوى، إذ راحت تلهج بصوت مرتفع:

- إنَّك الرجل الوحيد في حياتي: أنت روحي، فماذا يتبقى لي بعدك؟

أردفت في نبرة مؤثِّرة:

- أريد أن أموت معك.

أمسكت يدي اليمنى بيديها الناعمتين، وقبَّلتها في شغف:

-لمن تتركني ريشة في مهبِّ الريح

بعدك؟

ـ حبيبتي أعبد الأرض التي تمشين عليها.

وهجست داخلي: **"لقد صدق المثل اليوناني: تجلب الزوجة**

للرجل

أعظم بركة".

بدا وجهها يزداد توهُّجاً، وهي تبكي بحرقة، بدل أن يشحب كعادته، كلَّما تشاجرنا، طفا بريق صارخ في عينيها، وتزحلق العرق الغزير من جبهتها، إلى شفتيَّ الباردتين، فبدأت أشمّ عبق عطرها ممزوجاً برائحة الطعام، ومساحيق الغسيل...

لم تأتِ حبيبتي التي تحبُّني" حبَّاً جمَّاً" ما دفع عمِّي عزرائيل للتأكُّد من دقَّة اسمها الذي سجَّله عنده. والتحقق مراراً من أسماء الصديقات الحاضرات.

بدايةً استهجنتُ ما يحدث:

"إنَّنا معشرَ الرجال نُخدع بسرعة

ولا نقدِّر قيمة ما لدينا".

ثمَّ قلتُ لها في صوت واهن، كأنَّني أخشى أن يسمعني أحد:

"تظهر على ملامح وجهك الجميل

علائم قسوة العيش معي

لقد جبلتِ مرارة الحياة بصبرك

تحملتِ مزاجي المتقلّب

ونزواتي النسائيَّة".

- أعترف لوجه اللّه خالصاً:

"لا أحد مثلها
يستطيع تهدئة أعصابي عندما تضيق بي الدنيا:
ـ حبيبي عليك حرارة، خذ حبّة بروفين، ونام
فأتوسَّد حجرها
تدثرني بغطاء من فيض تحنانها
أو إثارة انزعاجي إلى درجة الغضب العارم:
ـ ليش لهلق؟ ومع مين كنت؟
زوجتي الغالية:
لئن كان من نبت طيِّب في بيتي فقد غرسته يداك عطرك يفوح عبقاً
وأطفالك ما زالوا صغاراً
تغمرينهم بأنفاسك الحانيَّة، لمساتك الحنونة...
ياسمينتي النقيَّة، يا الدافئة مثل شمس بلادي: نضرةً تظلِّين إلى الأبد.
أردت
أن أعود إليها، أعوِّضها جفاف مهجتي في الآونة الأخيرة
ونقمتُ على نفسي أنَّني ميت الآن
لا حول لي، ولا قوَّة.
فجأة

قـرَّبت شـفتيها مـن شـفتيَّ، وراحـت تقـبِّلني بحـرارة فظهـرت فراشـة مزركـشة، أخـذت تحـوم فـوق رأسـي، مرفرفة بجناحيها الجميلين في فرح.

شـعرت أنَّـني كـنت في نـوم، لا أسـتيقظ مـنه، والأعـشاب المتعفِّـنة الَّـتي قـيدتني، فأمـسيتُ عاجـزاً عـن الحـركة، أُزيلـت عـن كاهلـي، لأسمـع دبـيب الـزواحف تحتها، متمنيَّاً لـو أحضرتُ بعض تلك الشجيرات القزمة، كـي أبيِّن لأولادي أهميَّة الضوء لنمو كامل

فهنا النجوم تمدُّ السماء بالبريق الساطع، بينما هي مطفأة هناك، كأنَّها متجمِّدة دون أيِّ وميض. وتمنيت - في نيَّة صادقة - أن أحظى

بيوم رائق

مع زوجتي:

"إنَّه البيت رمز الأمان والاستقرار

فيه تختزل ذكرياتك وعواطفك الجيَّاشة

تبني السعادة مع الشريك

لبنة

لبنة".

*

بُعيد صلاة العصر

تنادى أقربائي، وبعض الجيران

يحملونني إلى مثواي الأخير، بينما ارتديتُ معطفي السميك، لأمشي معهم، بعدما صبغتني الشمس الباردة ببياض باهت.

حضرتُ مراسم دفني

رميتُ حفنة تراب على جثتي المشلوحة

في جورة ضيِّقة

ثمَّ عدت إلى بيتي، أحطت بالمدفأة، كأنَّني أحتضنها بعدما أحسَّست بالبرد القارس خرق عظامي الهشّة

ويكاد يجمّدني.

وقتٌ بنكهة الهيل

شجارات أولادي: من يأخذ كأس الحليب الطافحةَ أكثر، تملأ المكان حبوراً، فأكتشف جماليَّة مشاغبتهم وحلاوة ضجيجهم لتخفيف ضغوط الحياة

وإكراهاتها الكثيرة مسترجعاً وصيَّة جدِّي:

"خذهم بحدبك

فحنان الأبِّ أكثر ثباتاً من حنان الأم".

لقد هدأ المطر قليلاً

وثمَّة الفراشة ترفرف بجناحيها المزركشين من خلف زجاج غرفة النوم.

تأملتها فإذا صورة زوجتي ترتسم داخل بؤبؤيها

قدماها صغيرتان كقدميها

ولها بريق عينيها

عندئذ عاد رذاذ المطر

يدندن لحناً ناعماً على نافذة بيتنا

راسماً جداولَ

وأزاهير

مائيَّة

يانعة..

iiii عشَّاق ذاهلون

سطور من مطر
(المحظوظون)

.

.

لأنّ الكتابة مغامرة يائسة للقبض على الوجود...

"....."

سطور من مطر

(١ لمحظوظون)

كلُ أنواع الخدع لها اسم واحد: هو الأمل

- **البير كامو**

"طوبى للعشَّاق.. يرثون الأرض"

يمرُّ شابٌّ مرتاح في معطفه الأنيق، على عينيه نظَّارة شمسيَّة فاخرة، بالقرب من كهف جبلي، يصادف وجود شيخ كهل على بابه. فيسأله:

ـ كيف أصل إلى مدينة الحياة؟

يدلُّه:

ـ ذاك هو الطريق.

يتأمل الشابُّ رفوف الحمام هامساً داخله:

"كم يشبه رفيفها موج البحر

تُراها حمامات الهوى؟"

كان الشفق الذاهل يسحب أذياله أمام ليل ناهض. فعاود مستفسراً: "ما اسمه؟"

ـ طريق الحبِّ يا ولدي.

بدا الشيخ مثل طير، يفتح ذراعيه على امتدادهما فإذا جناحان يخفق بهما، كأنَّه سربُ حمام، في قدميه حذاء بالٍ، ويرتدي سترة رماديَّة بهت لونها...

يسير الشابُّ مسافة قصيرة، فتستوقفه نافذة مفتوحة على العلاء، يشعر بالعطش، فيطلب كأس ماء، تقدمه صبيَّة فاتنة، في عينيها لألأة قمر، تستبدُّ بقلبه:

ـ سيِّدتي أمنحك جميع ما أملك إن قبلتِ بي زوجاً.

كانت أشعَّة الشمس تتدلى من السماء رخيَّة

لا تشبهها في مكان آخر

والنسائم هنيَّة

فأمسك يدها الناعمة، وهي تسترجع كأس الماء الفارغ، ألبس خنصرها خاتماً من الماس، فأحسَّ برعشة تغوص في حنايا قلبه حين ردَّت في خفر:

ـ امهلني أفكّرْ بعضَ الوقت.

ـ كما تريدين: العمرَ كلَّه.

هل سمع العاطفة في صوتها؟ أغراه بريق عينيها البنيَّتين، فبات كسير الفؤاد؟

لقد حُرم من أمِّه، وهو طفل رضيع، فراح يبحث عمّن يودع عنده فيض وجدانه المفعم:

لا أعرف كيف اشتعل الحبُّ بيننا!

هل تعرفين:

لم أكن أنوي لقاءك في غفوتي

فقدرتُ أنَّه حلم عابر

حتَّى إذا ما صحوت

ووجدتك تتوسدين يقظتي

قلت أعاود نوماً لذيذاً

حلمتُ بك طوال الليل..

منذ ذلك اليوم سمَّى نفسه العاشق الأسير.

شيئاً فشيئاً تسرد الحكاية ذاتها، يشعل القاصُّ قنديلاً أخضر ينير درب العاشقين:

ـ أجزم أنَّ القصَّة أبعدُ مما نقصُّه، إنَّها ما نقوم بتخمينه من وراء الحدث الذي يجري في الواقع.

"حتَّى لا يجفَّ الكلام"

- أكتب إذاً موجود..

كنهر من صلوات، أحلِّق بجناحين مع بياض مسطور: هذي الحكايات كانت وراء غيمة حبلى أزحتها برفق، لأطلعكم عليها مرصَّعة بثراء تفصيلاتها، طزاجة أحداثها، وجرأة الموقف، كي تبعث في القلب مسرات، توهج شبق الروح:

"إن لم تمضِ إلى التخوم القصيَّة فلست من أهل العشق يا صديق".

قبلة حارَّة

عبر سطور من حبر

تمنح الحياة معنى جذَّاباً حتَّى تعاش

متعة عجيبة، موجعة، منعشة، تسكرني فأصبح كالريشة أعلو مع النسائم، وأنا أكتب:

"أمنيتي أن أسرد مثلما أتنفس"

حكاية داخل حكاية، تقنيَّة محفِّزة للقراءة على القراءة، قصَّتي قناع حالتي، بلغة سلسة أتعمَّدها، وما لا أحكيه تقوله الأغنيَّة، نصٌّ محلوم به في قول مختلف: تصير القصَّة بيتاً يظلِّلني، حضناً دافئاً يؤويني، أحلم بها

تمرُّ في الشارع، يرفع لها المارُّون قبعاتهم، ثمَّ يهزجونها بفرح، ويبكون عندما تحدِّثهم عن معاناة إنسان....

خبز روحي

يبحث المرء عن قصَّة جميلة، ولو سار مسافة يومين على قدميه، وتر لم يعزف عليه أحد: شعر وزجل لتسكير فراغات القصِّ، مخاطبة المحبوب متعة المتع:

"من شقائي صاغك الله حبيباً للقلوب".

جئت محمولاً على أحلامٍ، مشاعرَ متناقضة، رغبات شتَّى: كلُّ هذا الفيض من الوجد كيف أصرفه بغير ورقة وقلم؟

حزن نبيل لاستنهاض سرد مرهف

في جدل بين الشكل والمضمون.

تحفيزاً للحلم يصبح فنَّاً، راح القاصُّ ينقل برهة شعريَّة على شاشة روحه، عبر نصٍّ يتدفق بالحرارة، فالصدق الفنِّي هو الجواب....

تخلع الكلمات ثيابها القديمة – أمست باليَّة بالتأكيد - تجرِّب زينتها على مرآتي، فأكتشف جمالها الفتَّان:

خلطة كلام تنجب معنى مغايراً

متعة قول للمرَّة الأولى
اصطياد لحظات أثيرة من أعمارنا الهاربةِ
من بين أصابعنا كالزئبق
تبعث الدفء بواسطة الحبِّ طبعاً..
محبوبتي:
لأبثَّك لهفة قلبي:
عبر سطوري الملوَّنة
بأجنحة الرغبة
- أطير إليك
" **أحبُّك**".
هذه قصَّتي الطويـــــــــلةُ كلُّها:
البداية
الوسط
حتَّى النهاية
فمن يسبر مضمراتها أيُّها النقَّاد الأعزاء؟
ذلك أنَّ النقد كشف، والإبداع بناء.
أسمع الشيخ يدندن:
"على قدر حلمك تبلغ من المدى الرحيب يا ولدي"

فأشهق: "كم تحلو رعشة الموت معها".

أخطُّ أحاسيسي على بياض ناصع حروفاً تقطر ألقاً وناراً؟ فهل أتوقَّع محضر استجواب من شرطي، لم تعجبه قصَّتي؟ أو ألتزم مبدأ التقيَّة، وأكتب قصة مشفَّرة مُلغّزة؟

أن تجمع بين السمع، والبصر، والفؤاد، كلُّ ذلك كنتَ عنه مسؤولاً أيُّها القاص. فهل ثمَّة أصابع جديدة أذهب بها أبعد ممَّا تصل إليه يدي: شهقة قوس على أوتار كمان حنون، صورة حلم لذيذ على شاشة نائم مذهول، لمسة لون على لوحة تشكيليَّة، ظلٌّ دافئ في وجدان قارئ؟

أوَّلَ

ما تعرف إليَّ الشيخ الكهل نصحني:

ـ كي تطرد الشيطان من داخلك قصَّ قصَّتك.

لذا بحثت عن قصَّة سريَّة تثقل قلبي، رحت أكتبها فأحسَّست أنَّي أعالج نفسي:

"حياة مثل حلم عاثر"

في جلال الصمت، انتظرتُها خلال شتاء طويل، متدثِّراً بمعطفي الجديد، أناجيها:

ـــ أرأيتِ كيف يغشاني الحنين إليكِ، تدهمني حكايا الحبِّ، وأنت تطئين حديقة روحي؟

تردُّ في خفر:

- عندما دخلت حياتي تلقَّيت أجمل هديَّة من السماء.

لقد اختطفها ـ من دراستها الجامعيَّة ـ شخص شفته العليا أرنبيَّة، وطويل جداً...

لمدَّة ثلاثين عاماً سجنها في زنزانة، دعاها بيت الزوجيَّة، وهو يتساءل يوماً بعد يوم:

- لماذا لم تهرب بعد؟

يُذكَر أنَّه سألها مرَّة:

- كيف بقيتِ كلَّ هذه السنواتِ معي؟

أجابت بأنَّ السبب هو الاستعداد للبقاء ميتةً أطول فترة ممكنة، وختمت في مرارة لاذعة:

ـ وصفة للحصول على طبق شهي، لم تنجح أيُّها الزوج العتيد.

كانت تمضي يتبعها البنفسج، زهر القرنفل والياسمين

تستدعي الطرقات ظرافة خطوها، لتترك فوق إسفلتها نسمات عطر باذخ، وإذ يندح الوقت أصحُ على قصَّتي معها، عيناي من مطر، وبرق أحمر:

"أحبُّك

فادخلي قصَّتي

كي تنثري الورد

على سياج الكلام".

بينما هي تتشمَّس بوهج غيرتي عليها.

يعلو التصفيق من كلِّ مكان، لمقام القصَّة الرفيع، وأزفر:

- لا تتركيني مفرداً فيها، شفتاي من جوع، وقلبي في عطش كظيم.

ترفض

الصبيَّة الفاتنة عرض الزواج، فيسارع الشابُّ إلى الشيخ الكهل، يراه يدخل كهفه الشبيه بمغارة دهريَّة، يكتنفها الغموض. رفرف بجناحيه، فانطلقت رفوف متلألئة....

تحلِّق حماماته في رحابة الفضاء من حواليه، ثمَّ تسري نحو هدفها، كما لو أنَّها طائرة ورقيَّة، تسبح على مستوى واحد، لدرجة أنَّك تظنُّها تطير دون أن تخفق بجناحيها، لكنَّها تفعل، إنَّما برهافة، تكاد لا تُرى، حاملة رسائل حبٍّ، تصل بين القلوب الملتاعة.

بعد ذلك يُخرج الشيخ ساعة ذات سلسلة لامعة من جيب سترته الكالحة، ينظر فيها مليًّاً، قبل أن ينتبه للشابِّ، فيأتي بحركة رشيقة من يده الأخرى بمعنى لا تقترب، ابق مكانك، وقل ما تريد:

ـ أخبرني يا شيخ كيف الوصول إلى حيِّ النجاة؟

يردُّ عن بعد:

ـ لا بدَّ أن تكمل الطريق الذي تسير عليه، ثمَّ تأتي، لأدلَّك على ذلك الحي.

مع أنَّ الفصل صيف قائظ، بدت لحية الشيخ رطبة، تمطر قطرات متلاحقة، لذلك سحب يديه المرتجفتين نحو فمه، وأخذ ينفخ بإصرار، لعلّه يبعث فيهما بعضَ الدفء..

"عاشق أسير"

قد كبت فرسه ذات حبٍّ

فنذر لصباحاتك اشتهاءه العصيَّ على الذبول

لا شيءَ سوى هواك يُرجع رشده

لا شيء يُسلم روحه للريح

غير نشيدك المضمَّخ بالسعير:

ـ سيِّدة صحوي

وغفوي

يا حلمي الأخضر

تطفح بالغواية قصَّتي:

أشعل لهفتي لو تحضرين

أتأبط السفر الطويل إليك

نجمةً ترسم خطوها بين النوارس والمدى

فتوسدي فراشَ من شئتِ

سأنام مرمياً على وجع الكلام..

وهكذا سار الشابُّ بلا هُدى عبر مدينة، لم يهطل المطر فيها منذ سنين، فشاع بين الناس سرُّه: كلَّما مشى خطوتين تخطر في ذهنه، مثل شهاب ساطع، فيلتقيها وسط مكان خلَّاب.

لا يزعم أحد أنَّ المكان حيادي: أنهار من عسل وأعناب، زهور نبتت من تلقاء ذاتها، كأنَّه السحر المبين، فأخذ يغنيها:

"لمعة عينيك بريق عجيب

مذاق سرور لا ألذ

ولا أشهى!"

إلى أن وجد نفسه أمام نافذتها من جديد، طلب كأس ماء، قدمته طفلة تشبهها، عرف أنَّها ابنتها، لذلك

شـيَّد قـصراً منـيفاً، جعـل في أعـلاه بـرجاً، يطـلُّ علـى نافذتها، فعرف تجربتها الحزينة، تلازم زوجها

يصارع الشلل النصفيَّ، بعد حادثة مؤلمة، وهي تجمع جاراتهـا الجمـيلات، يـسرين عـنه، وينـشِّطن فحولـته الكامدة.

يقول لي الشيخ:

- حين تدهمك المرأة بحبِّها تمسي كلماتها قناديل ليلك الطويل، وإذ تملِّكـك جسدها تسمُ نحـو فضاء لا تطاله النجوم.

يردف: فجأة تصبح محبوبتك مركز العالم يا ولدي، يسمك الارتباك حتَّى يصير سمتك المميَّزة، تصيب الهشاشة داخلك، فتبتلى بعدم اليقين.

أسأله: "ما الحبُّ؟"

يرتِّب أضلاعه في صدره أولاً

للحياة ملذَّات هو أعظمها يولد مع الإنسان

وعبر منعطفات العمر يتسلَّل دون استئذان

يبدأ بالإعجاب، له اثنتا عشرة مرتبة، أوَّلها الميل والهوى، آخرها العبادة

إنَّه من علائم الحياة عند البشر

وفضيلة الفضائل في فلسفة إخوان الصفا ياولدي..

يكمل في حزم واثق:

- إذاً اكتب وجدك سرداً طويلاً، قصَّةً ضمِّنها الشعر، إن شئت، أو الزجل، لكن لا تبرح لغة القلب.

- ذاتَ شتاء قلت لها يا شيخ: "كفاك انتظار العابرين، وأنا المقيم عندك حتَّى النهاية".

ردت: "هكذا أنا"

مضيفة في جبروت: "إن شئت لا تحبَّني كي لا تحزن أكثر!"

" في عيد العاشقين"

تغيبين، فأتشرد - علَّني أشاهدك - في طرقات دمشق، متسكِّعاً من شارع إلى شارع، عن بعد يمرُّ العشَّاق، رجع أصواتهم يصدح في دمي.

أحدِّق في رواد الكافيتريات: عشَّاق يتبادلون نظرات ولهى، وقلبي بيلسان ذابل تثقله دموع انتظار سقيم.

يطالعني مقهى الهافانا، فألفُّ حوله ممعناً النظر من خلال جدار الزجاج الواطئ بلا جدوى، لأنَّ القسم العلويَّ مخصص للعائلات. أدخل أخيراً لكنَّ النادل يمنعني من الصعود.

تهطل عباءة المساء سواداً قاتماً: **"كم أنا بائس في حبِّك:**

أيامَ شبابي حرصت ألا تحبَّني فتاة لا أبادلها المشاعر:

فأنت عبد لمن يحبُّك كما يقول جبران

وكنت حذراً ألا أحبَّ فتاة تحبُّ غيري

لكن أن أحبَّك.. وثمَّة كثيرون.. أين أصرفها؟"

يتسلل الخدر إلى قلبي شهيد حبٍّ على مفترق درب حزين، ضباب مفاجئ يغطي نظارتي، أنزعها لأمسح دمعتين كبيرتين، بينما يتراكم رذاذ المطر فيحجب دمعي عن انتباه المارِّين.

كان الطريق إلى بيتك مزروعاً بالعاصفة

وشجيرة الياسمين بلا زهرها الأبيض

بينما أترقبك على أرصفة مستوحشة شحاذاً أعمى، أخاف البوح فيقتلني اليأس:

قدري أن أعيش الحبَّ حرباً

أتناول وجبتي من الجراح صابراً على البلوى،

عزائي بعد كلِّ هزيمة

أنهض

لأقطف ورد حكاية جديدة، وأنا أزفر في ألم:

"عييت أُظلُّك لهفتي

وقبلتي نصل سكين ".

في برجه العالي، يقرِّبه من أذن السماء كي تقرِّب بينهما، راح يبرق لمحبوبته الفاتنة:

تمرحين في دمي

أيقونةَ اشتهاء

أهزوجةً من بهاء

هكذا تعودتِ تغيبين

وتعودتُ تذكُّركِ كلَّ حين..

مسترجعاً قولة الشيخ الكهل:

- العمر يحسب بالسنين

لكن في العشق بحرقة الأنفاس يا عاشقين..

وينصحني:

- بإخلاصك لامرأة واحدة يكون عطاؤك عظيماً، فاكتب لها القصَّة تلو القصَّة: كلُّ عاشق، يصنع أسطورته نهايةَ المطاف، ولا تسقط في نثر رديء.

يتأملني في انسجام:

- فالسرد فنٌّ يخصِّبه الحبُّ، تثريه التفصيلات الطازجة.

يحدس الشابُّ داخله:

"إنَّها قصَّة تزخر بالعواطف المتأجِّجة

لكنَّها ليست قصَّتي مع صبيَّة.. رفضتني".

يستدرك: "ربَّما أعاد القاصُّ كتابتها، وهو يرقبنا من خلف ستار شفَّاف، ما يخلق مساحة من الغموض المثير".

يكمل في صوت خافت:

"كان لا بدَّ له من هذا الستار

كي ينأى بنفسه

فلا يقال إنَّه العاشق الأسير".

أصبح رقيقاً، لكن - في أحيان كثيرة ـ قلقاً إلى درجة التوتر العنيف، تعلَّق بالحياة، يخاف أن يضيِّع منها لحظة. لهفته على حياة محبوبته جعلتها أحلى، كأنَّها امتلكت هالة نور داخلها، وهو مستمتع بنار حبِّها الأليم، مشلوحاً بين حضورها وأصدقاء عابرين طوال الوقت....

تصلح مكياجها، ترتدي ملابس الخروج، كي نمضي إلى أمسيَّة: درب موشَّى بظلِّ القمر، رائحة ياسمين تعبق فوَّاحة...

ننـزل مـن سـيارة الأجـرة، تـصبح الإضـاءة باهـرة، يحيطون بها مثل فراشة وسط جراد مسعور، فتطير أوراق القصَّة من بين يديَّ، وأكظم غيظي:

"بمزيد من الصبر

أنتظر يوم تقلبين الطاولة على رؤوسهم

يا معبودتي".

فجـأة ينطفئ قلبي، لتنام في هـناءة، ويشتعل هـشيم تفكيري بها آناء الليل:

سيِّدتي:

- هـل أجمـل مـن رجـل يتوجُّك مليكة علـى عـرش قلبه إلى الأبد

يشيع فيك دفء الحياة إلى آخر العمر

فالحبُّ أبقى.

يـشعر أنَّـه تعـرَّض إلى مـا يـشبه الزلـزال الداخلـي، وسـط هـذه العلاقة العاطفيَّة المرتكسة، حيث أصبحا – في الآونة الأخيرة – لا يتقابلان إلا نادراً....

صباحَ ذلك اليوم أقامت الطبيعة عرساً أبيض، هطل الثلج غزيراً، غطَّى الدروب، والأسطحة، وذؤبات الشجر، وأنـا علـى مـوعد باللقـاء لمناقـشة قـصَّة سـتقرؤها أمـسيةَ

الثلاثاء القادم، أتساءل:

"هل مازالت وسط أحلامها

كوردة ناعسة

سهرت طويلاً تنقّح قصّتها؟"

إنَّها أسمى: قد تذبل الوردة، وهي تنتعش مع كلِّ حبٍّ جديد.

أراني جالساً على حافَّة سريرها المرصَّع بالصدف، أنتظر يقظتها المشتهاة على أحرَّ من الجمر، أحرس نومها المعبأَ بأمنيات جلَّى، حتَّى تستيقظ على مهلها، لأقدِّم لها النهار، أهشُّ عنها أسراب أشعَّة شمس، تنبعث من شباكها الشرقيِّ، وفراشةً تحاول لثم فمها العسل: **"تراها مثلي تعشق شفتيها القرمزيتين؟"**

أخيراً تفتح عينيها، ترميني بابتسامة جذلى، مع تحيَّة صباحيَّة عابقة:

"محبوبتي تمنح الكلمات رهافتها حين تتحدث همساً

وإن تبسَّمت بانت شمس نيسان".

ألوذ بها مع فنجان قهوة، وصوت فيروز، أترنمه في رجاء: "اعمليني مثل خاتم ذهب بإصبعك..."

ثمَّ أدوِّن على مفكرتي: يا من نثرت الورد على عتبات قلبي تعالي نجلس بعيداً، أحلم بك، وأنام داخل حلمي أغني:

لا تسألوني ما اسمها حبيبتي

لو بحت تكدَّس الياسمين في قصَّتي..

وراح الشابُّ ينام في مخدع الحبِّ ـ هكذا أطلق على غرفة نومه ـ جاعلاً للصبيَّة الفاتنة تمثالاً من البرونز، لا يستر جسدها إلا وشاح شفاف، يزيدها إغراء، فأخذ يتعبَّده طوال الوقت:

"**مولاتي: إن لم أسلك طريقاً مطرَّزاً بالوجد انفرط عقد الليلك**".

فجأة..

تطلُّ من نافذتها المشرعة على العلاء، ترى حديقة آلامه مزهرةً باتساع، وهو يحلم في وجع:

"لو تمسِّد براحتها الطريَّة على جبهتي

فيعافها التغضن اليابس

وأتخلَّص من تجاعيد الروح".

يواسيه الشيخ:

- كلُّنا قلوب على سفر يا ولدي.

كـثيراً مـا تأمـل الطـرقات مـن حـوله، غارقـاً في وسوسـاته: ذكـرى محبوبـته مـع أجـراس تُقـرع في حـزن شفيف:

"كأنَّها غابت تواً:

شال نهدي

بلوزة نيليَّة فاتنة".

أخبرها:

- وجهكِ حمامة حزينة.

- وأنت حصان مستوحش.

"سيرة أحباب.. فحسب"

يقولون تُغيِّر، كلَّ حلم، عشَّاقها، فيتربص بنبضها المخاتل، يمطرها نوبات عشق مجنون، ما إن يصل إلى كافيتريا الموعد الجميل....

تضع راحة كفِّها على وجنتيه، تمرر أصابعها بحنان من خلال خصلات شعره، لكن على حين يقظة ينطلق الشعور في أفق حميمي قصيدة لا أجمل، فيتقدم بلسان جارح:

ـ ثمَّة رائحة لعاشق جديد.

تشهق في غصَّة مرَّة:

ـ لماذا تعدُّ ما أكتبه اعترافاتٍ شخصيَّة بخطِّ اليد؟

ـ رهاني أن أوقظك على الحبِّ، فليست المرأة المثلى من تغري أكثر من رجل، بل الّتي تغري أكثر من مرَّةٍ الرجلَ نفسه.

أعود حزيناً

تفزع عيناي لملمحها معهم:

"آخرون يسمُّون أنفسهم أصدقاء

حتَّى إذا ما انداح وقتها يغتالون طيبتها شامتين".

تلتهب جفوني كلَّما شعرت أنَّها تعيسةً مع زوجها دمع معلَّق بأهدابها الصهباء، لأهجس في سرِّي: **"شكراً لك**

اختصرتِ حياتي مدوَّنة عشق

لأكون سطراً من مطر".

بعد كثير من السنوات، جاء سيل عارم هدم ذلك البرج العالي، فحزم الرجل الكهل ـ الذي كان شابَّاً ـ أمره، وعزم على المضيِّ إلى شيخه، الَّذي وعده أن يدلَّه على حيِّ النجاة....

كان

ضوء قنديلها شاحباً يتسرب من النافذة العالية ويصنع على جدران قصره خيالات، أشبه بالأشباح،

تميِّزها علامات بؤس وشقاء موجع، فحشا جسده بما استطاع من أردية بالية تحت معطفه الأنيق، ليمضي على الطريق الطويل، يخاطبها صامتاً:

"في ضوء القمر ألمحك كلَّ ليلة

وعند الصباح تسكنين شرياني الأبهر".

مشى مسافة مديدة عبر مساحات واسعة، يغطيها بياض الثلج اللاذع، فدمعت عيناه، وتجمعت قطرات الصقيع فوق شعره المشعَّث، وعلى جوانب لحيته وشاربيه الكثيفين. بيد أنَّه لم يجد الشيخ الكهل عند الباب كعادته، بل ظهرت الحمامات، يتلفتن حولهن ذاهلات، ويهدلن في انكسار أليم.

ولج الكهف يجرجر قدميه المكدودتين، وقد تجمدت الدموع في مقلتيه.

ثمَّة منفذ للضوء، وفي مكان مرتفع موقد نار مشتعل.

أجال بصره الحزين فيما حوله، شاهد على الرفوف نسخة من رباعيات الخيَّام في تجليد باذخ كتاب الزُهرة لمحمَّد الأصفهاني المعروف بابن داوود طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي رواية عابر سرير، وأخرى بعنوان" 3 أصابع فقط" إصدار جديد.

بعد ذلك تسلَّل إلى فسحة واسعة، وجد الشيخ، وقد أكل البرد رؤوس أصابعه، واهترأت سترته مزقاً بلا لون.

للحظة

بدا له أنَّ قلبه مازال ينبض في تناغم مع هديل حماماته البيض بعدما توقفت أعضاء جسمه كلُّها عن العمل.

وكأنَّه في حلم، تتنقَّل عيناه التعبتان في الأرجاء الضبابيَّة من حوله، ليرى ورقة معلَّقة على جدار الكهف بمسمار حجري:

إنَّها الحكايات

تحكينا

حين نحكيها:

- في رحلة العيش بحثت عن الحبِّ، فعرفت أنَّه وجع لذيذ، لا نعرف متى يأتي، ولا من أين يجيء دون ميعاد: طعمه حلو، عندما يكون خفيفاً، فإذا ارتكس طويلاً قد يسبب الجنون...

وتساءلت حينذاك:

"ألا يساعد بالمقابل على العيش أفضل

إذ يرمِّم الروح

يصون الفكر

ويحفظ الجسد من الأمراض؟"

والآن

ألمحني شاباً في مقتبل العمر مثلك يا ولدي

أمشي كسائر الناس على طريق الحياة، عندما شاهدته يحاول الاعتداء عليها: جميلة كغصن بانٍ تمادى في مدِّ يده العجفاء حتَّى إذا ما لامست الريح أطراف القصب أخذ يلهث في توحُّش، فانبعث أنينها حزيناً موجَعاً، وتبدى ثدياها مذعورين بعدما مزَّق قميصها.

راحت تصرخ مستنجدة

فتقدمتُ، وصارعتُهُ دون أن أنتبه إلى ما يخبئ في جيب معطفه الطويل، مع ذلك خلَّصتها رغم طعنات سكينه في أنحاء جسدي.

بعد فترة طويلة زارتني في المشفى الذي أُسعفت إليه من خطر الموت....

لا أنسى ذلك اليوم حين التقطت فمي، وامتزج ريقها بيباس شفتيَّ، وأنا دائخ وسط بحر من خمرة معتَّقة، فتساءلت:

"ما القبلة

إن لم تكن ارتطام شفاه رجل مع امرأة

بكلّ حرارة الشباب

ورحيق الأنفاس

لينبض القلبان بالسعادة

فتتمازج الروحان في بعضهما".

ثمَّ تندسُّ في سريري الأبيض بكلِّ ما فيها من فتنة، لتستعر نبضات قلبي الموهنة جمراً أحمر: زرعت صدري بتنهداتها، وذرفت دموعاً لآلئ نضرة فتصيبني الرعشة الأولى، وأموت ذلك الموت اللذيذ...

كشفت لي عن آثار أظافره القاسيَّة، حفرت أثلاماً من الدم الجافِّ على فخذيها، فبنيت لها عشَّاً داخل صدري، ورحت أبحث عن دعابات حتَّى أبهجها

أخيراً اعترفت:

- أفرح كثيراً عندما تضحكين!

- كيف أضحك؟

- اضحكي يزهرِ الربيع في دمي، ويندح شفق ذاهل معلناً قيامة النهار.

أحسُّ، وأنا أدوِّن أحداث حكايتي، مثل من يسقط من علٍّ، فرحت أعيدها مراراً حتَّى حفظتها عن ظهر

قلب، ولم أعد أستطيع نسيانها، أو كتابة غيرها...

كم سررت لأنَّنا تقاسمنا الأسرار والمتعة، فبكينا حتَّى بلَّل الدمع وسادتي قبل أن يعمَّ الصمت....

يومذاك أيقظتُ جنون الأرض بحبِّي لها، فتمازجت روحانا، حتَّى إنَّني لم أتخيل نفسي للحظة أموت بعيداً عنها:

" **جسد اعتاد عطشه الأزليَّ**

وسادته خرساء".

بين قوسين: تقع في الحبِّ يعني أن تسلِّم نفسك للمحبوب موقناً أنَّك سوف تحبُّه إلى الأبد، فلا تسأل: "لماذا هو بالذات؟"

تعزف الشمس نشيد لقائكما معاً

يحمل الغيم ندى أنفاسكما على حبَّات المطر

تصبحان جناحين للريح

فتنبض في قلبك فورة الشباب مهما بلغت من العمر..

لكنَّها

تتكرني بعد مدَّة، ثمَّ تدير ظهرها، لأشعر بالإهانة، مثل شخص ملعون، وأهذي كالمجنون بين البلدان:

في آخر الزمان

تمسين نبضاً مشتهى

وأرقد سطراً في كتاب النسيان..

كأنَّني

حين أخطأني نيزك الحبِّ أصابني صمت ذاهل حتَّى اهتديت إلى هذا الكهف ذاتَ فجر مضيء، فرحت أكتب رسائل غرام، يحملها الحمام الزاجل إلى أنحاء المعمورة، لعلَّ إحداها تصل إليها:

"تظلّين تشعرين بالبرد

ولو في أوجِّ الصيف

إلَّا أن يطعمك من كرز شفتيه".

وصرت أراني

شيخ طريقة في الحبِّ، يحيط بي العاشقون حمامات بيضاً، ترفرف أجنحتهم في سماء فيروزية، لا حدود لها.

مع الأيام

بدأت تصلني ردودهم، أخذوا يكتبون رسائلهم بحبر تفوح منه روائح زكيَّة: فلكلِّ رسالة عطرها المميَّز حسب مقتضى الحال، ثمَّ راحوا يقدِّمون باقات الورود لحبيباتهم، اللواتي قابلن ذلك بإعداد وجبات طعام لذيذ

وسط موسيقا ذات تعبير رومانسي.

وهأنذا

أنظر إلى فوق، إذا نافذتها مظلمة، غادرها عشيقها العنيف، منتحراً بعدما هجرته إلى أحضان آخر أكثر فتوَّة، فذكَّرني لقائي معك بقصَّة رجل عابر، كان يسير في الشارع، وجد شخصاً ملقى على الرصيف وخنجرٌ يخترق ظهره. فانحنى، وسأله هامساً:

ـ هل تشعر بالألم؟

يجيب الشخص المطعون بنبرة حزينة:

ـ فقط عندما أضحك.

وعلى سبيل المزاح

زعمت أنِّي أعرف الطريق فسامحني يا ولدي أرجوك.

*

خرج

من الكهف مسرعاً، كأنَّ أحداً بانتظاره. وقف أمام بابه المشرع على المدى، يتأمل الطرقات من حوله في ذهول. فإذا شابٌّ يسأله:

ـ كيف أصلُّ إلى مدينة الحياة يا شيخ؟

يدلُّه:

ـ ذاك هو الطريق.

يعاود مستفسراً: "ما اسمه؟"

- .....

بغتة

ثارت عاصفة هوجاء

فكأنَّ السماء تمطر حجارة

والحجارة تدفعها مياه نهر طافح مثل طوفان عظيم

لـتهدم القـصر المنـيف ويـتعالى النـشيد الفـيروزي:

"وحدن بيبقوا مثل هالغيم العتيق"

فأجمـع أوراقـي بعـدما طيَّـرتها العاصـفة رذاذاً أبـيض أبيض كـي أعاود السير

على الطريق

وحيداً

يقودني

الشوق المبرِّح

إليها

.

.

ختام

اعطني قليلاً من الوقت
فربَّما لم يغلق بائع الورد
هو يعدني منذ خمسة وعشرين عاماً
أن تكون الوردة آخر هزائمي..

- أحمد تيناوي

.. وحتى نلتقي

الأدب
لا يساعدنا على المشيِ
لكنَّه
يجعلنا نتنفس أفضل..

- رولان بارت

القصص

قناع جميل.....11
أبعد من نجمة.....27
ظل القمر.....49
3 بيلسانات.....71
نصفه الأبيض 97
أنشوطة الصمت "عشب على حجر".....105
النير.....121
في انتظار.. أيام سعيدة "زمن الضيق".....135
وردة الطفولة.. الحمراء.....149
حياة جديدة 163
سطور من مطر 179

أيمن الحسن

ـ مهندس مدني من قرية العمارنة ــ منطقة جرابلس ـ محافظة حلب.

ـ مقرر جمعية القصة والرواية في اتحاد الكتَّاب العرب.

صدر له:

- **محاولة.. في رصد ما حدث** 1994
- **العودة.. ظافراً** جائزة الشارقة للإبداع العربي 1997 بالاشتراك مع انتصار بعلة - المرتبة الثانية.
- **شاي** قصص قصيرة 2003
- **عصا موسى** قصص قصيرة جداً 2006
- **زهرة الشغف(بياض مكسور)** الجائزة الأولى في مسابقة المزرعة دورة حنا مينه لعام 2008
- **أبعد من نهار " دفاترالزفتيَّة"** رواية إصدار اتحاد الكتَّاب العرب 2011